كتب للجميع

عشرة أيام فى السودان

بقلم

محمد حسين هيكل باشا



٨ شارع ضريح سعد بالقاهرة

طبع بمطابع « جريدة المصرى »

فهرس

اهداء الكتاب	٥
مقدمة	٦
من مصر الى الخرطوم	٩
الخرطوم من النظرة الاولى	٢٢
عيد الملك	٣٥
حكومة السودان	٤٣
يوم بأم درمان	٥٤
حفلة افتتاح خزان سنار	٦٥
العودة الى الخرطوم	٧٠
خزان سنار	٨٢
يوم فى جبل الاولياء	٩٧
عشية الاوبة	١١٥
مصر والسودان	١٢٦

إهداء الكتاب

الى اهالى السودان

شكر وتحية

محمد حسين هيكل

مقدمة

ليس فى هذا الكتاب شىء أكثر مما يمكن أن يشتمله عنوانه . فهو مجموعة ملاحظات ومعلومات جمعتها أثناء رحلتنا القصيرة بالسودان . وهى قصيرة حقا لانها لم تتجاوز عشرة أيام . وعشرة أيام أمد قصير لايستطيع الانسان فيه ان يلم الماما صحيحا بكل مايقع تحت نظره كما لايستطيع تحقيق كل مايصل الى مسامعه . لكنها مع ذلك تسمح بالوقوف على كثير مما لم يكن للانسان به علم ، كما تسمح بتحقيق كثير مما كان الانسان يتخيله تخيلا ، وربما كان لصحفى مثلى حظ لايتاح لغيره يمكنه من الوقوف على كثير من الاشياء . فالصحفى منظور اليه من الناس جميعا على أنه كلمة الناس جميعا . اليه يذكرون ملاحظاتهم وآراءهم ويبثون شكاياتهم وهمومهم ويبدون آلامهم . ثم هم يتسابقون فى اجابته الى مايطلب الوقوف عليه لعلمهم انه سيذيع ذلك للناس جميعا .

على ان ذلك ليس وحده هو الذى دفعنى الى تدوين هذه الملاحظات والمعلومات التى وقفت عليها أثناء مقامى عشرة أيام بالسودان . فلقد سافرت قبل اليوم الى غير السودان من بلاد مجاورة لنا يعنينا أمرها عناية كبرى وفكرت فى ان أكتب شيئا عنها ثم ترددت وانتهى بى التردد الى الاحجام . وهذه سوريا أقرب لنا من السودان زرتها مرات وأقمت فيها فى كل مرة أكثر مما أقمت بالسودان ، بل اضعاف ما أقمت بالسودان . ومع ذلك ، ومع عناية المصريين بكل مايدور فى سوريا ، لم أر مايدفعنى الى ان أكتب عنها مثل ما أكتب اليوم عن السودان . ولعل أكبر السبب فى هذا راجع الى أن لدى المصريين فكرة تكاد تكون صحيحة عن سوريا وأحوالها وما يدور فيها والى ان السوريين أنفسهم يكتبون عن بلادهم وعن أحوالها مايزيد فى الدقة على كل مايمكن أن يكتبه

سائح قضى مدة قصيرة فى ربوعهم ثم لعل ثمت سببا آخر . ذلك أن بين مصر والسودان رابطة طبيعية هى النيل أبو النعمة ومانح الحياة للبلاد المحيطة بواديه الضيق الخصب المتصل أوله بآخره بآثار التاريخ الخالدة على التاريخ . هذه الرابطة الطبيعية المتصلة بها حياة المقيمين على ضفاف النهر السعيد تجعل بين أبنائه من رابطة الاخوة ما ان عقوه يوما فلن يزال رابطة تربطهم ويجب أن تنتهى الى خير ماتنتهى اليه مودة ذوى القربى .

ثم ان السودان على متاخمته لمصر وعلى امتلاء قلوب المصريين باسمه وبذكره بعيد عن أن تكون منه فى أذهانهم صورة مضبوطة . فمنهم من يخاله بلادا جرداء لا تصلح لمقام ولا يمكن أن تكون الا منفى لمن غضب عليه الآمر فى أرض مصر . ومنهم من يتوهمه مقام همج لا أمل فيه لرواج زراعة أو صناعة أو تجارة . وكثيرا ماروى عنه الراوون أن أهله أشد الناس عداوة للسعى والعمل ، وانهم لا يريدون من الحياة الا بلغة تقيم الحياة ، فليس بهم الى مياه النيل من حاجة ، وليس الى المقام بينهم باسم المدنية أو التعمير سبيل . وهذه الافكار وما اليها من مثلها تروج فى مصر ، ومنها كثير فاسد أشد الفساد وضار بالمصريين أنفسهم أبلغ الضرر . فليس بد اذن من ان يكون المصريون لانفسهم عن هذه البلاد صورة صحيحة بعيدة قدر المستطاع عن ان تلونها شهوات الساسة

ثم ان مسألة مياه النيل وأولوية مصر التاريخية فى الانتفاع بها ، وامكان توزيعها لتكفى مصر والسودان جميعا امكانا فنيا ، وما قد يقوم فى وجه ذلك من عقبات سياسية ، وما تجنى هذه العقبات السياسية على حسن فهم المصريين والسودانيين بعضهم لبعض ، وعلى احتفاظ كل منهم ازاء أخيه بعواطف الاخلاص والمودة — كل ذلك جعلنى أوجه حظا كبيرا من همى ومن عنايتى الى هذه المسألة الخطيرة التى لم تنج فى مصر كما لم تنج فى السودان من شوائب الشهوات السياسية ، والتى كانت وما تزال سببا لنشر

الدعوة التى تثير بين المصريين والسودانيين العداوة والبغضاء.

ولقد جعلتنى صفتى كصحفى أشعر بثقل حمل الواجب الملقى على عاتقى . فسعيت بكل مالدى من جهد لارى ولاسمع ولاحقق ولاصل الى الفكرة التى اقتنع بصحتها فى كل مسألة أتعرض لها . ولذلك لم أقف من ملاحظاتى عندما جمعت فى عشرة الايام التى أقمت بالسودان . بل جاهدت لامحص هذه الملاحظات بمناقشة من ذهبوا الى السودان ومن أقاموا فيه من المصريين ومن غير المصريين . وكل غايتى من هذا التمحيص ان يكون القليل الذى أعرضه فى هذه الرسالة أمام نظر القراء أقرب مايكون للواقع وللحقيقة .

ويجب ان أنبه القارىء الى أنى توخيت غاية الصراحة فيما سيقرأ . لم أرع ماقد يرعاه مشتغل بالسياسة مثلى من المجاملات ولم أسع لتمليق انسان أو جماعة ولم أتقيد برأى سياسى أو غير سياسى . لاعتقادى التام بان المواربة كثيرا ماينشأ عنها الخطأ . واذا اخطأ الناس فى تصور شىء لا وسيلة عندهم الى تحقيق رأيهم فيه لبعده عنهم بعد السودان عن مصر كان عسيرا بعد ذلك ان يتغير رأيهم ثم كانت الخطة التى يسيرون عليها مترتبة على هذا الخطأ داعية التورط فى ضلال لاينشأ عنه الا فساد فى السياسة واضطراب فى النظام.

وكل ما أرجو التوفيق اليه ان أوقف القراء عامة وبنى وطنى المصريين خاصة على شىء من صورة هذا السودان الذى يشاركنا فى الامال والامانى لانه واياناً يعيش على ضفاف النهر العظيم المحسن ، وان أوضح امورا غشت عليها الاهواء ، وان أدل قومى على منزلتهم من السودان ومنزلة السودان منهم ، وما يجب ان يكون بين المصريين والسودانيين من صلة وعلاقة . فان وفقت الى ما اليه قصدت فذلك خير ماابتغى . وان أخطأنى التوفيق فقد قمت بمجهود شعرت واجبا على ان أقوم به. وفى أداء الواجب لذاته غبطة للنفس كبيرة .

من مصر إلى الخرطوم

يعرف اكثر القراء الطريق من القاهرة الى الاقصر ويقع الطريق بين الاقصر واسوان فى مضيق بين سلسلتى تلال ليبيا والعرب ، ويسير القطار شرق النيل فى سفح سلسلة تلال العرب وتفصله عن سلسلة ليبيا فى بعض الاماكن مزارع ضئيلة تتسع او تضيق على ما تريد التلال المحيطة بها . ويبعد النيل عن القطار أحيانا فيجعل المزارع بينهما . وقل أن ترى المزارع بين القطار وتلال العرب . ويصل الضيق بالمزارع فى بعض المواقع حتى لتشعر بالسلسلتين فى اقترابهما وليس بين احداهما وبين النهر الا دهليز ضيق مخضر بالغلال تارة ، أجرد لازرع فيه أخرى ، فاذا كانت اسنا رأيت نشاطا غير الذى رأيت ، وأحاط بالقطار من الاهالى باعة السلال المصنوعة من الخوص واطفال يتجرون بفاكهة البرتقال واليوسفى افندى .

فاذا بلغت كوم امبو رأيت خصبا ونماء لم يكن لك منذ الاقصر بهما عهد . وقد يدهشك كبر الدهشة كيف تترك الاف الافدنة مما يحيط بالنيل اله الخصب جرداء لا زرع فيها ولا نماء اذا أمكن أن تنتج هذه الاراضى مثل ما تنتج أراضى كوم امبو . ولم لا تعنى الحكومة المصرية بتشجيع الاهالى على استغلال هذه الاراضى بدل تركها غامرة يرضى المقيمون عليها بما يتبلغون به من شعير وما يرد اليهم من ذويهم القائمين بالخدمة فى المدن من ارزاق

تعود الارض غامره بعد كوم امبو الى اسوان . **فاذا** بلغها القطار

غادره كثيرون من الاجانب الذين قصدوا الى هذا المشتى البديع، وهم بين شيخ جاء يرجو فى أشعة الشمس المحسنة بعض معانى الصبا والشباب ، وعليل يمشى فى مناكب الارض يبتغى الصحة ، وحسناء تصحب هذا الشيخ أو ذلك العليل يعزيه حسنها ورقتها عن مشيبه أو علته ، وترى هى فى اداء الواجب لهذا العزيز شفه السقام شيئا من رضاء النفس يعوضها عن المدن وبهجتها ،وترى فى هذه الشمس الساطعة والطبيعة القليلة التغير ما ينسيها تقلب القلوب واكاذيب الالسن وظلمات النفوس التى طالما خدعتها باللفظ المعسول . والى جانب هؤلاء الفارين من المدن وامراضها وآلامها ولؤمها قوم اتسعت ثروتهم عن أن يؤدى ركن ضيق من الارض طلبات اهوائهم وشهواتهم فجعلوا من السياحة والتجوال وسيلة لترويض النفس وعزاء من هموم . قامة

ثم يقطع القطار ما بين اسوان والشلال ليبلغه فى منتصف الساعة الخامسة من المساء ، وهو فى هذا السبيل يعود ادراجه زمنا ثم ينطلق الى الشلال يقد صخورا وصخورا من الحجر ومن الجرانيت نحتت منه مسلات الفراعنة الاقدمين وتماثيلهم واقيمت منه معابدهم واثارهم ، وهو ما يزال الى اليوم تنحت منه التماثيل وتتخذ منه القواعد لولا أن أصبح فن الفراعنة أثرا من آثارهم

على أن هذه الاحجار التى شهدت لمصر مجدا كما تشهد لها اليوم هما ستبقى ليكون منها المجد المستقبل نصب وتماثيل تخلد على الزمن ما خلدت نصب [illegible]راعنة وتماثيلهم

ويبدأ القطار يسير الهوينا يحيط به النيل وقد اتسع مداه بعد ماحجز خزان اسوان مياهه ،ويظل كذلك بضع دقائق ينتهى بها الى محطة الشلال حيث تنتظره الباخرة وتقل المسافرين معنا الى حلفا

* * *

وتنحدر جبال السلسلتين عند مركز الدر فى النهر مباشرة . ومن وراء الجبال صحارى غير ذات زرع . لكن مركز الدر هو

خزان اسوان . وهو فوق هذا حصن بديع يفصل بين مايقع شماله وما يقع جنوبه . وهو لذلك من خير مراكز مصر ويجب أن يكون من أعزها عليها . ويخيل الى أن من غير المستحيل استغلاله على صورة تجعل الحياة فيه أكثر رغدا ونعمة

وهو بعد مشتى لامثيل له . وأنت كلما انحدرت الى ناحية الجنوب منه وجدت جوا أصح من نواحى الشمال فيه . ووجدت سماء صفوا تلمع نجومها فتضىء فى الليالى التى لاقمر فيها حتى لتحسبها مصابيح الكهرباء شدت الى السماء بخيوط من نور الامل الساحر . وهى شديدة البريق تبعث الى ظلمة الليل العبوس مايزيل عبوسها ويجعل سكينتها تملأ أفئدة المحدقين بالنجم اللامع بمعانى الطرب والجذل . أما الجبال المحيطة بالنهر فهى وان كانت أغلب أمرها جرداء الا انها فى تجردها باسمة أبدا ، وكأنها تنبه بماوراءها من مخلفات الماضى المجيد : بآثار الفراعنة زاد القدم والبلى صمتها معنى يحدثك أنت ابن اليوم بما كان لحضارة العصور القديمة من آثار فى الفن تخر أمامها آثار الحضارة الحاضرة ساجدة ، وببقايا من آثار الرومان الذين غزوا الوادى فلم يبق من آثارهم الا بقايا لاتنطق بمعنى ولا تنم الا عن غدر الغازى وعن سلطانه الاثيم

وقد يدهشك قيام هذه الآثار المجيدة من مخلفات الماضى وراء جبال مركز الدر القفر القليل النبات . لكن دهشتك تزول اذا ذكرت أنه كان أكثر نباتا ونماء قبل أن تغمر مياه النيل أرضه بعد ماقام خزان اسوان فيه ، واذا ذكرت الى جانب هذا أنه كان ولن يزال حصنا قويا يدرع به الملوك ذوو الايد اذا أغار عليهم مغير أو ثار بهم ثائر . فجبال مركز الدر تتحكم فيما حولها خير تحكم . تتحكم فى النهر وفى السهل وفى الصحراء . ثم هى بعد جبال من صخر صلد لا يرتفع الماء الى عليائه ولا سبيل الى مسراه من خلاله فلا خوف من ان يغير النهر على آثار أعدها أهلها لحياة الخلد وبقاء

عرجت الباخرة عند غير واحد من هذه الآثار الخالدة . عرجت عند وادى السبوع وآماد وابى سنبل وغيرها . وهى جميعا مظاهر من هذا الفن القديم الخالد على تفاوت فى العظمة والقوة وفى الدلالة على المجد والسطوة . وأبو سنبل هو بين آثار مركز الدر اكثرها عظمة وقوة ومجدا وسطوة . وناهيك بمعبد أقامه رمسيس ليكون واحدة من آيات خلده . وكان رسو السفينة عند أبى سنبل فى منتصف الليل فمدت اليه أسلاك الكهرباء ليرى السائح ابن اليوم نقوش أجداد الانسانية الخالدين على ضيائها اللامع . فمعبد أبى سنبل يخفى مكنون ستره عن العيون الا لحظة من نهار فى بعض أيام السنة . تلك لحظة مشرق الشمس عند استواء الفصول . فى هاته اللحظة تمتد أشعة الهطيبة والمصريين فتحيى ، لحظة بزوغها منتصرة على جيوش الظلام تمثال رمسيس الخالد الجالس على غرشه منتصرا على جيوش الخيانة والغدر . أما فيما سوى هذه اللحظة فيختفى ماينطوى عليه المعبد وجدزانه فى حجب الغيب وجلاله . وناهيك بجلال الغيب من حجاب . وكذلك ظل هذا الاثر حتى امتدت الايدى الآثمة باسم العلم تكشف النقاب عن هذا الجلال بضياء المصباح والكهرباء على أنها حين كشفت عنه لم تكن أمام عظمته وقوته وأمام سلطانه وسطوته أقل سحرا وبهرا .

وبهذا الجلال المطوى فى حجب الغيب تحيط جدران معبد أبى سنبل وقد وقفت أمامه تماثيل أربعة للملك العظيم كلها المهابة والجلال .



أما وادى السبوع — وهو أقرب آثار مركز الدر الى اسوان — فيقوم فوق هضبة غير بعيدة عن النهر . يتخطى الداخل اليه دهليزا يحيط به آباء هول هى السبوع التى أطلق اسمها على الوادى عند أهل هذه المنطقة من السذج القانعين بسعادة الطبيعة الساذجة . وقامت داخل المعبد وفى ساحته تماثيل دكت من بعضها رؤوس وتحطمت من البعض سيقان . وقلت ذلك المحجر المحجوبة بطلاسمها المقدسة

وقد رسم على جدرانها من آيات ذلك الزمن القارب والجعران والثعبان وما اليها من آلهة ذلك العصر المجيدة

أما ماسوى هذين من الآثار فأقل منها جلالا وعظمة . على أنها أبدا آثار العصور المجيدة . تحدث احجارها ويحدث الرمل المحيط بها بما كان لاهل هاتيك الازمان النائية من حضارة ومجد ، ويدعك وانت بين تلك التلال القائمة وسط الصحراء الغامرة الجرداء عامر النفس بمعان قل أن تدور بخاطرك حين تشهد آثار هذا الزمن الحاضر الممتلىء بحضارته وبعلمه وبفلسفته غرورا

***

لو أن السبل يسرت للوصول الى هذا المشتى البديع ، ثم أقيم فيه من وسائل الراحة والنعمة مايطمع فيه من يرغب فى الاستشفاء ومن يفر من قارس قر الشتاء حيث الشتاء قاس قارس لأفادت مصر من مركز الدر كثيرا ولأفاد أهل هذا المركز من مصحهم الشتوى البديع مايغنيهم من فاقة وما يجعلهم - وهم أهل أمانة ونشاط - قوى منتجة ذات أثر فعال فى حياة مصر العامة

***

وانسابت الباخرة على هون تدفعها محركاتها فوق لجة النهر الهادىء الصافى وسارت تحيط بها شواطىء خضراء تارة مجدبة طورا ويشتملها هواء رقيق متع به المسافرون فوقها كما متعوا بهذا الجو البديع الذى لانظير له فى مشتى من مشاتى العالم ، وبهذه الجبال الصغيرة الجرداء تارة والخضراء اخرى والمحاطة بالرمال الناصعة الاصفرار حينا اخر .. وبالاثار المطلة علينا من القمم الصغيرة ترمق أبناء اليوم ترى هل بقى فى رءوسهم او قلوبهم او افئدتهم أثر من عبادة قدس الماضى المجيد فترى فى نفس المصرى حنينا ايزداد او ينقص بمقدار عبادة الشخص وطنه او مجرد حرصه على ما يجنيه منه من فائدة

***

ها نحن أولاء الان تقترب بنا الباخرة من حلفا ، فلم يبق بيننا وبين رسو الباخرة عندها الا دقائق ، وهاهى تحيط بنا زينة

الشاطئين من نخيل واعشاب وتلال ورمال . وها هو ذا الماء ينساب الى جانب القارب على هون وفى هدأة وسكون . والجو رقيق والسماء صفو والشمس ربيع زاه ، وحياة الوجود خضراء ناضرة . ثم هذه حلفا عند مرمى النظر . وهانحن أولاء فى سلطان حكومة السودان بعد ما ظللنا فى سلطان حكومة مصر الى ساعتين مضتا . فهل نحن سائحون فى بلد اجنبى ، ام نحن ابناء النيل مانزال فى وطننا تحكمنا قوانينه كما تحكمنا طبيعته الجميلة الفاتنة ؟

لما اقتربت الباخرة من حلفا اقبل عليها رفاص فيه موظف اوراق الجواز الى السودان وطبيب مهمته ان لا تدخل الى السودان أوبئة من مصر . وهما انكليزيان . وكان اول ما لفت بعض المسافرين الذين جاءوا الى السودان قبل اليوم أن هذا الرفاص كان يرفع فى الماضى العلمين المصرى والانكليزى . اما فى هذه المرة فلم يكن عليه الا العلم الانكليزى . وقد اجاب انكليزى كان معنا بان العلم المصرى ما يزال يرفع فى السودان فعدم رفع الرفاص للعلم المصرى لابد ان يكون سببه ضيق المكان المعد لرفع العلمين عن ان يتسع الا لعلم واحد . قال رفيق : والعلم المقدم هو بالطبع علم صاحب النفوذ الفعلى .

* * *

ورست الباخرة عند حلفا ، واستقبلنا جماعة من المصريين الموظفين فى حكومة السودان بكثير من البشر والترحاب ودعانا احدهم فتناولنا القهوة فى بيته

وذهبنا الى القطار الذى يقوم من حلفا فى الساعة الثانية من بعد الظهر ليصل الى الخرطوم فى الساعة الرابعة من بعد ظهر اليوم التالى فاذا به قطار ابيض واذا خطه ضيق كسكة حديد الدلتا . لكنك ما تكاد تدخل الى عرباته وما تكاد تستقر فى غرفة النوم المخصصة لك حتى تشعر بمعنى اخر . معنى النظام والنظافة والطمأنينة والراحة . ويدهشك ان عربات النوم فى هذا الخط الضيق اكثر راحة واستهواء من عربات النوم فى مصر . فمعدات الراحة فيها اكثر منها فى عربات مصر . ممرها اكثر سعة وغرفها ارحب وبها مقاعد يجلس عليها الانسان

حين لا حاجة به الى النوم . وبها مروحة كهربائية ومنضدة صغيرة ودولاب صغير لاناء الماء وما قد تريده من لبن او فاكهة هذا غير وعاء الغسيل النظيف اللطيف

تحرك القطار فى الساعة الثانية وما كاد حتى ذهبنا نتناول غداءنا فى غرفة الطعام . وهى على مثال غرف النوم فى كفالة الراحة والطمأنينة . والطعام فيها مثله فى البواخر النيلية اقرب للنظام الانكليزى فى اصنافه .. والقائمون بالخدمة فيها كالقائمين بالخدمة فى البواخر النيلية ، هم جميعا من اهل البلاد . لا تقع عينك بينهم على اجنبى يقوم بالرياسة عليهم . وهم كزملائهم فى مصر نظاما ونظافة وادبا .

ما يكاد القطار يترك حلفا (المعسكر) حتى ينطلق فى (عطمور) ابو حمد . وهذا العطمور رمال تمتد امام الناظر عن الجانبين حتى تلتقى بزرقة السماء الصافية عند الافق . ويبتعد النيل عن سكة الحديد فى استدارته الكبرى ما بين حلفا وابو حمد وتسير سكة الحديد فى خط مستقيم وسط الرمال مدى يزيد على ثلاثمائة كيلو متر ، وفى هذا العطمور ينطلق القطار مارا بمحطات لا يحيط بها الا بناء المحطة وبيت الناظر ومساكن العمال . وبين كل واحدة وما بعدها ما يزيد على ثلاثين كيلو مترا . وبيت الناظر ومساكن العمال — او تكلاتهم كما يسمونها فى السودان — قد بنيت فى شكل عجيب . فقاعدتها جدران مستديرة من الطوب الاحمر ترتفع عن الارض مترين او تزيد قليلا وفوق ذلك قباء على شكل قباء الصيوان حتى لتكاد تحسبه صيوانا بالفعل لولا ماتتبينه بعد اقترابك منه انه بناء غشى بالجير الابيض . وهو على هذه الصورة اكثر اتقاء لسوافى الرمال ولما قد يندر ان تقذف به الصدفة من الامطار . وحول بيت الناظر ومساكن العمال رمال العطمور . فهم بذلك فى وحده دونها وحدة الناسك فى صومعته . ويمر بهم قطار حلفا والخرطوم اربع مرات فى الاسبوع ذهابا وجيئة فيحمل اليهم ارزاقهم .

ولما لم يكن حولهم من مظاهر حياة الانسان ما يذر لهذه الاماكن اسماء تذكر بحادث وقع فيها او برجل اسس اول عائلة عمرتها او بما سوى ذلك مما يبقى تاريخا لمظهر من مظاهر الحياة الانسانية فليست لهذه المحطات اسماء تتصل بهذا التاريخ . ولذلك اعتبرت نمرا تبدأ عند حلفا بنمرة واحد ، وتنتهى قبل ابى حمد بنمرة عشرة . وعند نمرة ٦ يقف القطار طويلا لتبديل القاطرة وللاتصال بمناجم للذهب فى ام نباردى حيث تقوم شركة انكليزية باستغلالها

ولا وسيلة لقطع الوقت وهذا التشابه يحيط بك الا ان تقرأ او تتحدث الى من معك من المسافرين ، واكثر المسافرين معنا من الانكليز . وهم على رقتهم وظرفهم اكثر اتصالا فيما بينهم منهم بغيرهم ؛ على انى قضيت ما بعد العشاء الى منتصف الليل فى حديث طويل مع المسيو السندرينى الذى قام باكثر اعمال خزان مكوار كما قام من قبل بحظ كبير من اعمال خزان اسوان

بقيت اتحدث والمسيو السندرينى حتى قاربنا منتصف الليل . وكان القطار ينساب فى ظلمة الليل الداجى زاده ظلمة ما يحيط بنا من انوار الكهرباء التى تحجب عنا ما قد يكون من التماع النجوم فى السماء . وسألنا الخادم عن الوقت الذى يصل فيه القطار الى العطبره فاذا هو يصلها فى الساعة السابعة صباحا . حينذاك قمنا الى مخادعنا يهزنا القطار حينا فيطير النوم من اعيننا ويغلب النوم علينا حينا فلا نحس باهتزاز القطار . ثم انبعثت من خلال النوافذ تباشير الضياء وجاء الخادم بشاى الصباح . وما كدنا نفرغ من تناوله ومن لبس ثيابنا حتى كان القطار قد بلغ العطبرة ليقف فيها ساعة كاملة .

عند العطبرة تلتقى سكة حديد (حلفا — الخرطوم) بسكة حديد (بور سودان — كسلا) . وفيها حركة كبيرة لسكة حديد حكومة السودان . بها ورشة للوابورات كاملة النظام

وبها كذلك عدد عظيم من الموظفين المصريين . بل لعل اكبر عـــدد من الموظفين المصريين بالسودان هم المقيمون بالعطبرة . لقينا جماعة منهم على رصيف المحطة برغم هذه الساعة المبـكرة من الصباح فرأينا منهم هذا البشر الذى رأيناه فى مصريى حلفا .

واكبر موظف مصرى فى العطبرة يتقاضى مرتبا ستة وثلاثين جنيها وهو وحده الذى يتقاضى هــــذا المرتب . اما من يليه فى الدرجة فيتقاضى سبعة وعشرين جنيها ويلى هؤلاء من دونهم فى الدرجة من الموظفين .

وقام القطار من العطبرة الى الدامر فاجتاز نهر العطبرة على جسر (كبرى) متين حســـن الشكل . ونهر العطبرة صغير كان ماؤه حين دنا به غائصـــا . ومن بعده وقف بنـــا القطار فى الدامر عاصمة بربر

فى هذه المنطقة وما بعـدها تبدأ زراعة القطن على المطر . لكنها هنا ليست متســـعة النطاق وان كانت تؤذن بازدياد مطرد . ومن هذه المنطقة يسير القطار الى الخرطوم قريبـــا من النهر تارة ، بعيدا عنه طورا ، مخترقا صحراء جافة حينا فهى أقرب الاشياء شبها بالعطمور ، مارا بين اشجار متكاثفة اخرى محاذيا بعض المزارع ثالثـــة . وفى هذه المزارع ترى القطـــن وغير القطن من انواع الزراعـــة وترى الدوم والنبق وغيرهمـــا من الشجر .

لبثنا فى القطار بين حلفـــا والدامر اكثر من ثمـــانى عشرة ساعة . وما تزال بيننـــا وبين الخرطوم ساعات ثمان . ومثـــل هذه السياحة الطويلة فى سكة الحديد تعيد الى الذهن سياحات طويلة مثلها او اطـــول منها فى أوروبا . لكن بين هذه السياحة الافريقية والسياحات الاوربية فرقا كبيرا . فاكثر السياحات فى أوربا تمر بك بين جبال رفيعة وسط جو سريع التقلب وطبيعة لا يحـــول عبـــوس الجـــو دون ابتسامها ، واكثر الســـياحات فى اوربا تخترق سويسرا او غابة المانيا السوداء فتريك ســـفوحا ناضرة يفوح منها شذا العطـــر ويبدو للناظر اليها جمال الزهر

وهى بعد طبيعة لم تترك للطبيعة بل شارك الانسان الطبيعة فى زينتها وفى جمالها فزادها زينة وجمالا . أما هذه السياحة الافريقية الطويلة فتخترق بك الصحارى التى لاحد لها ولانهاية وتشعرك بالوحدة المطلقة وسط الفضاء الصامت لاتسمع فيه هسيسا ولا ترى فيه طيرا ولا حيوانا ولا ينبت فى أكثره نبات ولا شجر . وما انبت لنبات والشجر فينبتهما وفى كل قطوب الصحراء وعبوس الجبال لا يفل من غربهما الا جمال الطبيعة الدائمة الصحو . افترانا وقد تخطينا العطبرة والدامر وأصبحنا يقف بنا القطار أو يمر على محطات ذات أسماء وذات تاريخ ويحيط بنا الوقت بعد الوقت شىء من الشجر قد صرنا الى منظر ذى بهجة يعوض ما مضى من عبوس وقطوب ؟

كان لنا فى ذلك أمل . لكنه سرعان ماتبدد وبقى لنا منه سراب هو هذه المزارع القليلة من القطن وهذه الغابات ترعى فيها الابل ويجد فيها البدو لاغنامهم وماعزهم وأبقارهم مرتعا . على ان لهذا السراب بهجته . ومن تلك البهجة أهل هذه المدن المستوحشة . فهؤلاء هم يقتربون من القطار كلما آوى الى احدى المحطات وبيد امرأة لبن رائب تبيعه وبيد غلام عيش يعرضه لمن به جوع . ولعلك غير مستطيع وان وصفت لك هذا العيش ان تتصور ماهو . فرغيفه صغير الحجم منتفخ لاتدرى أهو من ذرة أم من شعير وغير اللبن الرائب وغير العيش يتجر بعض السودانيين اخواننا فى سلال واسبات صنعت صنعا ظريفا من قش ملون . وهذه هى البضاعة التى يقبل عليها بعض السائحين ونجد لديهم سوقا رائجة . اما اللبن واما العيش فلا عيش لهما الا بين المسافرين من أهل البلاد

***

وهؤلاء السكان من طبقة العمال فى السودان ليسوا جميعا أصليين فيه . بل بعضهم سكتاوية أتوا من سكتو واخرون فلاتة جاءوا من النيجيريا فى طريقهم الى الحج فوقفوا فى السودان يبتغون مايقيتهم فى هذه الرحلة الطويلة التى تكلفهم احيانا سنين

تباعا يقومون بها عن قلب طيب ونفس راضية راجين ان يغفر الله لهم بعد أداء فريضتهم المقدسة ما تقدم من ذنبهم وما تأخر

ومن هؤلاء الفلاتة عدد عظيم يقوم بزراعة القطن وجنيه فى أراضى الجزيرة . وعلى عملهم تعتمد حكومة السودان الى حد عظيم

❊ ❊ ❊

الدامر عاصمة مديرية بربر . والقطن الذى يزرع فى مديرية بربر وفى غيرها من مديريات شمال السودان يروى من مياه النيل الرئيسى . وطرائق ريه تختلف فما كان من زراعة الاهالى فترويه السواقى . وما كان من زراعات الشركات فترويه الالات . وقد ذكر لى بعضهم ان المساحات التى تزرع قطنا فى شمال السودان — أى فيما قبل الخرطوم — ليست كثيرة وليست بذات خطر

والقطن الذى يزرع فى هذه المناطق كالقطن الذى يزرع فى الجزيرة يسلم الى الحكومة لتتولى بيعه بالطريقة التى تراها . وقد رأت بيعه بالمزاد فى هذا العام وبعد البيع تحاسب الاهالى ، على انها مع ذلك قد صرحت لبعض رؤساء القبائل ذوى النفوذ بان يتولوا هم بيع أقطانهم بأنفسهم . وقد ذكر لى مصرى من اليهود له متجر واسع للاقطان فى ليفربول انه هو الذى يشترى أقطان هؤلاء المشايخ فى كل عام كما يشترى قطن الحكومة . وان المشايخ الذين سمحت لهم الحكومة بهذه الميزة لا يبلغون العشرة عدا

وتسعى حكومة السودان ليكون مستقبل القطن فيه ذا شأن عظيم .

وليست تقف زراعة القطن عند مديرية بربر بل تتعداها الى المديريات التى بعدها حتى الخرطوم ، وان كانت الاراضى التى تزرع قطنا ما تزال قليلة . وهذه القلة هى التى تجعل أهالى تلك المناطق مايزالون بعيدين عن معانى الحضارة مستمسكين بتقاليد البدو الصحيحة ، على ان مايجده بعضهم من الربح فى زراعة الارض يجذب هذا البعض للاستقرار واستغلال الاراضى

انطلق القطار بنا الى شندى ومررنا بعد ذلك بالشلالات الثلاثة وصرنا نقترب رويداً رويداً من الخرطوم بحرى . فلما بلغناها قابلتنا معسكرات واقعة على ضفاف النيل الازرق الى الضفة الشمالية وتمتد الى بعد منه غير قليل .

عن يمين الداخل الى محطة الخرطوم بحرى متسع كبير أعد كورنتينة للحيوانات المسافرة الى مصر تبقى فيه الزمن الكافى لليقين بان ليس فيها ما يحمل الى مصر وباء او ضراً ، وتنتقل منها مباشرة الى القطار الذى يقلها الى حلفا فالسفين الذى يقلها الى الشلال

والى جانب هذه الكورنتينة مكان أعدته حكومة السودان لتربية الحيوانات . ولحكومة السودان فيما قيل لى عناية كبيرة بهذه التربية حتى لاتحتاج الى شراء خيل للجيش ولاتستعين من حيوانات الخارج الا بالنزر القليل مما تحتاج اليه لاصلاح النتاج .

***

ينساب النيل الازرق بين الخرطوم بحرى والخرطوم . ويجتازه القطار فوق جسر (كوبرى) عريض يتسع للقطار وللترام وللراكبين والراجلين . ثم يلتوى القطار بعد ذلك مارا بين كلية غردون ومدارس الخرطوم المختلفة عن اليمين ومعسكرات الجيش البريطانى عن الشمال ويتابع التواءه حتى يصل الى محطة الخرطوم الرئيسية .

وتقع محطة الخرطوم فى فضاء من الارض لايحيط به مايشعر القادم معه بشىء من مهابة محطات العواصم . فالمبانى الخاصة باعمال المحطة منعزلة صغيرة قليلة الارتفاع كمبانى محطات الارياف العادية فى مصر . وليس لها من وجاهة مبانى محطات حلفا أو محطة العطبرة كثير ولا قليل . وخط الحديد لايظله سقف ولا يحيط به من الافاريز ولا يتصل به من خطوط المناورات الكثيرة ما يرى عادة فى المحطات الرئيسية . لذلك دهش من لم يعرف الخرطوم من

قبل أن تكون هذه محطة سكةالحديد لعاصمة السودان . على أن هذه الدهشة لم تدم الا ريثماأخذت بالبصر زينات كانت تمتد الى مرمى النظر فى طريق متسع يبدأ أمام المحطة . هذه زينات يوم الملك أعدت للاحتفال بعيد تذكار مقدم جلالة الملك جورج الخامس الى الخرطوم حين عودته من الهند فى سنة ١٩١٢ . وهذا الطريق الذى تمتد فيه الزينات هو شارع فكتوريا . وهو يصل مابين المحطة وسراى الحاكم العام كانت الساعة الرابعة حين وقف القطار فى المحطة . وكنا قدأمضينا ستا وعشرين ساعة من وقت أن غادرنا حلفا . ومهماتكن معدات الراحة بالقطار كاملة فالسفر قطعةمن العذاب . لذلك فرح المسافرون جميعا لبلوغهم الخرطوم . ونزل كل يبحث عن البيت أو الفندق الذى يأوى اليه ونزلت مع من نزل فالفيت جماعة من المصريين الذين عرفت من قبل وقوفا ينتظرون . فلما رأونى قابلونى بالترحاب والبشر بما أدخل الى نفسى الغبطة والطمأنينة ثم غادرت محطة الخرطوم الى فندق جراند حيث قضيت أيام مقامى بعاصمة السودان .

الخرطوم للنظرة الأولى

قبل افتتاح السودان بقوات الجيش المصرى وبعض الفرق الانكليزية فى العقد الاخير من القرن الماضى كانت أم درمان هى العاصمة الكبرى لهذه الاصقاع المترامية من أراضى القارة الافريقية ، وكان يطلق عليها اسم عاصمة الدراويش وكانت ذات أهمية تجارية خاصة اذ كانت ملتقى طرق القوافل الآتية من الأبيض وغير الأبيض من بلاد الداخل . فلما فتح السودان وجد لورد كتشنر الخرطوم وفيها من التذكارات التاريخية للحملات المصرية الماضية مايجعل حقا لها أن تكون عاصمة بدل أم درمان . وكانت قد خربت كل مخرب أثناء الحرب فلم يبق منها الا آثار وأطلال . فجددها بهمة الجيش المصرى وقيامه بأعمال البناء وغيرها من أعمال التعمير . وسعى سعيه ليجعل أم درمان أثرا بعد عين . لكن أم درمان بقيت الى يومنا مستقر تجار الواردات الى السودان كما أن الخرطوم أصبحت بعد بنائها وبعد امتداد خط السكة الحديد عندها مستقر تجار الصادرات من السودان .

ولقد روى المحدثون كثيرا من الروايات عن الخرطوم وجعلوا منها مدينة غربية بحتة . فشوارعها متسعة يزيد بعضها على الخمسين مترا ولا ينقص واحد منها عن ثلاثين مترا . ومبانيها منتظمة تمام الانتظام ، وفيها نور الكهرباء يضىء شوارعها ومنازلها ، وفيها المياه جارية فى كل المنازل . وهذه التفاصيل عن صورة هذه المدينة التى اشتق اسمها من صورة النيل الازرق الملتوى التواء خرطوم الفيل تترك فى ذهن القارىء محلا لمقارنات

كثيرة . فهذه الشوارع الواسعة وهذه الانوار الكهربائية وهذا الماء الجارى أقرب مايكون الى صور مدن المياه فى أوربا . ومدن المياه فى أوربا تجمع من معانى النعمة مالا يجتمع فى غيرها من المدن . فيها الحدائق الغناء وفيها أماكن النزهة والرياضة وفيها المجتمعات الزاهية الزاهرة ، وفيها كل مايجلو صدأ النفس ويطرد هموم القلب . اذن لابد أن تكون الخرطوم على هذه الصورة البسامة الجذابة . فطوبى لقوم جعلوا فى أقرب المناطق لخط الاستواء ماقصر عنه كثير من أهل مدائن المناطق المعتدلة .

وتدخل الخرطوم وهذه الصورة تملأ نفسك . فما يكاد القطار يسير بك نحو المحطة الوسطى – كما يسمونها – حتى اذا بك قد مررت – بعد تخطيك كبرى النيل الازرق بين الخرطوم والخرطوم بحرى – ببعض مبان للحكومة لاتحقق الصورة التى فى نفسك ولكنها مع ذلك لاتقضى عليها . فحول كلية غردون والمدارس المحيطة بها حدائق ظريفة تأخذ بالنظر . لكن بعدها فضاء صحراويا لابناء فيه ولا ماء . وتتلفت وانت بالقطار يمنة ويسرة فاذا كل ماحولك مبان قليلة الارتفاع بنيت من طابق واحد . فاذا وقف القطار رأيت ميدانا واسعا ليس فيه شيء يزينه ورأيت أمامه مثل تلك المبانى القليلة الارتفاع وشعرت بهذه الصورة الجذابة الممتلئة بها نفسك وقد بدأت تذبل وتضمحل . لكنك سرعان ماتشغل عن هذه الصورة وذبولها بمن تراه من معارفك واصدقائك الذين جاءوا الى المحطة ينتظرون هذا القطار القادم من مصر آملين أن يجدوا به من ريح مصر مايسليهم وينعشهم وان يلاقوا بين الراكبين هؤلاء المعارف الذين غابوا عنهم سنين بعد أن كانوا فى حياتهم جزءا غير قليل من هذه الحياة ، والذين أصبحوا بسبب هذه الغيبة ولوجودهم نائين عن القاهرة ومثلها من الاماكن التى عرفوهم من قبل فيها أقرب الى قلوبهم وأفئدتهم ترى هؤلاء المعارف فتهز ايديهم ويهزون يديك بشوق ولهفة ويسألونك عن البلاد ماحالها وعمن خلفت وما صار اليه أمرهم ؟ فاذا فرغت من ذلك وفكرت فى اختيار

فندق تأوى اليه عاونوك برأيهم وبمساعدتهم وبكل مايملكون من وسائل المعاونة ، وأشهد لقد لقيت من رقتهم ما أنسانى مشقة سفر ست وعشرين ساعة فيها مافيها من مشقة برغم مافى القطار من وسائل الراحة والطمأنينة

وعرفت ساعة وصولى المحطة أحد كبار موظفى حكومة السودان من السوريين فلقينى بترحاب أى ترحاب وصحبنى فى سيارته الى جراند اوتيل حيث نزلت . وماكاد يستقر بى المقام حتى جاء لزيارتى بعض اخواننا المصريين وفيما كنت بالسيارة فى طريقى الى الفندق أظهرت دهشتى من هذه الصورة التى تبدت لى من الخرطوم والتى لا تتفق فى شىء مع ما كان مرتسما لها فى خيالى الشوارع واسعة حقا وعرضها يزيد على ثلاثين مترا . وفيها الكهرباء حقا تضيئها اذا جن الليل وولت موليات النهار . لكنها شوارع غير مرصوفة والتراب عن جانبيها كثير حتى ليغوص فيه عجل السيارة . ونحن على مايظهر فى خير احياء المدينة الآهلة بأعاظم سكان الخرطوم من الموظفين . ثم ما هذه المبانى المحيطة بنا والتى لا ترتفع اكثر من طابق واحد ؟ وما لها لا يحيط بها نضرة الزرع وخضرته الا قليل ؟ ولم استطع اخفاء ما يجول بخاطرى فسألت صاحبى مابالهم لا يرصفون الشوارع . فكان جوابه ان قال : أن ذلك يكلف مليونا من الجنيهات ولذلك تكتفى الحكومة بتسيير الوابورات الثقيلة فى القسم الاوسط من الشوارع الكبرى حتى يتمكن الناس من السير فيه

ازدادت الصورة التى كانت مرتسمة فى خيالى من الخرطوم ذبولا حتى كادت تصل الى حد القبح حين ذهبت فى صبيحة اليوم التالى أرود انحاء المدينة فقد انحدرت الى احياء أعدت لموظفين أقل من الاولين درجة ولبعض اعيان المدينة ، كما انحدرت بعد ذلك الى الاحياء الآهلة بالسودانيين وتجارتهم والتى تقع بعد ميدان الجامع . وهذا الميدان فسيح متسع أعد لتقام فيه الحفلات ذات الصبغة الدينية واخصها حفلة مولد النبى

ومع ذلك فهو ميدان ترب تغوص القدم فيه الى حد يتعذر معه السير ويهد السائر التعب بعد قليل . فأما ما بعده من الاحياء السودانية البحتة فتتجلى فيهما مظاهر الفاقة القاتلة . ترى فجوات مفتوحة فى بناء منخفض هى حوانيت الصناع والباعة . وترى فى هذه الفجوات جماعة السودانيين جلوسا وعليهم ملابسهم البيضاء أصبحت سمراء من الشمس والتراب . وترى امامهم من صناعاتهم العنجريبات والاحذية وغيرها من صناعات وطنية ضئيلة فاذا ازددت تغلغلا الى ما بعد ذلك رأيت حوانيت من القش يعمرها رجال لا يكاد يسترهم من الملابس الا قليل . ورأيت بعدها « سوق النساء » عملت الشمس فى وجوههن واساريرهن فرسمت عليها من علائم البؤس واثار الشقوة ما لا تفهم معه كيف ترضى احداهن احتمال هذه الحياة القاسية لولا ما فى الحياة من سحر خداع يغرى أشد الناس بؤسا وشقاء بأمل فى يوم نعمة ورخاء . وتبيع هاتيك النسوة (الكسرة) . وهى نوع قبيح من الطعوم ، كما يبعن الفلفل وبعض الوان الشقاء مما يطعم الفقراء

ولا تطاوعك نفسك لتشهد من بؤس هاتيك وأولئك اكثر مما شهدت فتعود أدراجك طالبا بعض ما يروح عن نفسك

وكان معى صاحب مصرى ظريف سار واياى الى ناحية الترام نركبه الى جهة (المقرن) . والمقرن هو المكان الذى يقترن فيه ماء النيل الابيض بالنيل الازرق وتجرى عنده السفن التى تقل الركاب المسافرين بين الخرطوم وأم درمان . فقصدنا الى حيث محطة الترام وانتظرناه حتى اذا أقبل الفيته تراما بخاريا تجره آلة ذات عجيج وضجيج ومن ورائها عربات عدة تكاد تبلغ الثمانى او العشر واكثرها قذر تقوم فيه مدرجات يجلس عليها ركاب الدرجة الثالثة وبه عربتان هما عربتا الدرجة الاولى مفروشة مقاعدها بجلد أو مشمع تود لو ان مكانه خشبا نظيفا .

اجتاز الترام بنا الخرطوم من طرفها الى طرفها الاخر . واجتاز بنا فى أحياء تختلف نعمة وبؤسا، لكنه كان يسير فى شبه صحراء

قل ان تقع العين فيها على سائر فلما بلغنا مخازن الحبوب عند سكة الحديد وقعت العين على منظر ما أحسبنى ريت فى الحياة شيئا أشد منه ايلاما ولا اكثر منه دفعا للاشفاق الى النفس. منظر لن يستطيع الخيال وان غلا وان بالغ فى الغلو ان يصل الى تجسيد الالم الانسانى كما جسدته هذه الحقيقة الناطقة بكل معنى القسوة الانسانية .

الى جانب مخازن الحبوب ميدان فسيح من تراب ضارب لونه الى لون الرمل . وفى هذا الميدان تمر الغلال من ذرة او شعير الى المخازن. وقد يقع منها اثناء مرورها ما يختلط بهذا التراب

لم أر الحبوب تمر ولم أر ما سقط منها الى الارض واختلط بترابها . لكنى رأيت امرأتين كل واحدة منهما عارية او تكاد فلا يسترها الا خلق قذر يغطى بعض اسفلها ويترك الظهر كله والاذرع والرأس مكشوفه للشمس وللهواء . وكانت كل واحدة مقعية كما يقعى الكلب وتنبش الارض بأظافرها وقد أحدثت فيها فجوة كبرى وهى ما تزال دائبة على النبش وتلقى ما بين حين وحين شيئا من التراب الذى يعلق بأظافرها وبيديها فى غربال او منخل الى جانبها . سألت صاحبى : مابال هؤلاء النسوة اكببن على الثرى يحتفرنه بأظافرهن كما يحتفر الحيوان وجاره بمخلبه ؟ قال صاحبى وفى نبرات صوته رنة هم وشجن هن فقيرات لايجدن قوتا ، وقد تعول واحدتهن طفلا او اكثر ، وقد أقبلن يحتفرن التراب آملات أن يجدن فيه من ذرة او شعير مما قد ينتثر ساعة حمل الغلال الى المخازن . فاذا ظفرت احداهن بما حسبته حبة ألقت به فى غربالها . وتظل كذلك يومها تحتفر القوت من تراب الارض احتفارا . فاذا خيل اليها ان قد اجتمع فى غربالها بعض منه عملت لتنظيفه عل فيه مايقيمها ويقيم من تعول من طفل او يتيمة يوما او بعض يوم . وهن كذلك يلقطن ما أعانهن القدر فاذا أمطرت الدنيا او انقضى موسم الغلال فلهن ولمن يعلن البؤس والويل



وكانت كل واحدة مقعية كما يقعى الكلب وتنبش التراب
بأظافرها آملة أن تجد فيه حبة من ذرة

أى سواد لحظ الانسان كهذا السواد ؟ ! هو أسود من تلك الوجوه الشقية والظهور العارية والشعر الفاحم فى تجعده والتفافه ذلك منظر دونه كل ما رأيت من مناظر الفاقة والبؤس . دونه هاتيك المتسولات يرتجين عطف كريم ، او يأملن ان تمس توجعاتهن قلبا مكلوما يفيض حزنه سخاء . هو بؤس النفس التى تعف عن السؤال وترى فى غايات الشقاء مع العمل نعمة الرفعة عن مسألة اللئام بل عن مسألة الكرام .

حدثت بعض المقيمين بالخرطوم بهذا وبمثله مما شهدت فيها فأذبل ما كان لها من صورة فى نفسى . وجاهدت لاجد لذلك كله عذرا . فالخرطوم بلد جديد ، دخله الجيش المصرى ومن معه من فرق انكليزية سنة ١٨٩٨ ، فالفاه خرابا يبابا . ومن ذلك التاريخ اقيمت المدينة كلها بما فيها من معسكرات ومنازل وشوارع وطرق . رسمت يوم رسمت على صورة الراية البريطانية لتكون مثلا للنظام الانكليزى الهادىء المطمئن . وغرست الاشجار فيها فنبت ما نبت منها واعيد غرس ما مات . والمدن كالاشجار لها حياة غير الصورة الظاهرة وغير حياة الجسم الذى يتشابه مع اجسام الغير فى اكثر مظاهره . لها حياة الروح المستمدة من تاريخها ومما مر بها من محن وآلام ، ومن مسرات واعياد . وهذه السنون ليست كافية لتبعث الى مدينة من المدن حياة الروح ولتجعل منها ما يحدث النازل اليها بمعان تحدث بها المدن القديمة التى شهدت من غير التاريخ وعبره ماترك على كل جدار من جدرانها وحجر من حجارتها صحفا ناطقة بمختلف الصور والمعانى . فللخرطوم العذر ؛ وهى بعد بلد حديث ؛ اذا هى لم تحدثك بمكنون حياتها وبدت لك كما تبدو للعين الدمية صنعها الصانع على مثال غيرها من الدمى ولم يكلمها الوقت بجراحه فيجعل لها معنى وقيمة ، ولهي الى جانب ذلك من اعتزاز ما فيها من بعض الجمال انما اعد لمتع الحاكمين وذوى الامر فيها مما لا تزال مظاهره لذلك قاصرة على الحى الذى فيه يقيمون .

فكان جواب بعض من تحدثت اليهم بما احسست به وبما التمست للخرطوم من عذر ان قالوا ان فيما اقص عليهم شيئا من الحق كثيرا وفيه من الغلو كذلك شيء كثير . فالخرطوم بلد حديث حقا . وليس بين سكانه من التجانس ما يجعل فيه وحدة الروح التى تقيم الحياة . ففيه الانكليز والسوريون والمصريون والاروام والسودانيون . وليس بين هؤلاء جميعا من الاختلاط مايخلق روحا جماعية ترفرف على البلد كله ، بل لكل جماعة قوامها القومى والجنسى والدينى واللغوى وشوارع البلد على سعتها لم تنظم بعد النظام الذى يجعل سائن أوروبا وساكن مصر يراها بالعين التى كان يظن ان سيرها بها . وأحياء البلد ثلاثة . أولها الواقع على النيل الازرق مباشرة وهو اجملها واكثرها نظاما ، لا يقطنه من غير الانكليز الا السير السيد على الميرغنى باشا ، فله فيها قصره وله امام قصره ساقية بمائها الجارى . وثانيها مقام غير الانكليز من الموظفين ومقام بعض الانكليز الاصاغر وبه تجارة الاروام والسوريين وما فى البلد من دواعى المسرة ، وثالثها مقام اهالى البلاد وبه الجامع وميدانه حيث يقام مولد النبى ، وبه ما سبق ان اشرت اليه من مظاهر البؤس والفاقة . لكن للخرطوم على الرغم من ذلك كله جمالا وللحياة فيها روعة لمن عرف معنى الحياة وروعتها

ولعل الانكليز اول من عرف كيف يجعل للحياة فى الخرطوم معنى وروعة منذ نزولها . فقد اقاموا لكل منهم منزلا بما تحتمله كلمة منزل الانجليز
من المعنى . جعلوا فيه حديقة وملعبا للتنس ومقاما للطيور . وجاء كل واحد فى بيته من الحيوانات والطيور الاليفة او التى يسهل تألفها كالغزال والببغاء بكل ما تحتاج اليه لملء اوقات فراغه من غير ملال بل بغبطة ولذة . وقد وجد كل انكليزى من « منزله » الكامل الاداة مايعوض عليه مشقات العمل فى هذا الجو الشديد الحرارة فى فصل الربيع وما يتسلى به عن

وحدته وبعده عن بلاده . ثم لم يكفهم هذا فخلقوا ملاعب لهم يلعبون فيها كرة القدم كما اقاموا خارج المدينة ميدانا لسباق الخيل . ومتى تمت للانجليزى معدات الرياضة كمل له نصف نعيم الحياة . وهو واجد فى بيته غير ما فيه من معدات الرياضة سكينة وطمأنينة . فأما ما بقى بعد ذلك من لذة الجماعة والتحدث الى الاخرين فميسر للانكليزى فى ناديه بالخرطوم يذهب اليه كل مساء يقضى فيه شطرا غير قليل من وقته .

وقد اخذ غير الانكليز مأخذ الانكليز ونهجوا نهجهم . فلكثير من الموظفين السوريين والمصريين فى منازلهم ملاعب للتنس وانواع شتى من التسلية .

قالت سيدة سورية لها فى الخرطوم ثلاث سنوات : لقد شعرت شعورك لاول ما نزلت الخرطوم . فلم يعجبنى قفرها وصمتها الموحش . لكنى لم البث على ذلك الا قليلا . وما لبثت ان وجدت فى منزلى وماحوله من حديقة وملعب وطير او حيوان سلوى حببت الى الخرطوم وجعلتنى ارى فيها متاعا وروعة

ولا ريب فى احتواء ما يقولون على جانب من الحق كبير . فالبيت يشغل من حياة الانسان رجلا او امرأة حظا عظيما . فيه لمن عرف كيف يعيش فيه نعمة وسعادة. وليس البيت هذا الطابق الضيق فى احدى العمارات المشيدة يحيط بساكنه عن اليمين وعن الشمال وأعلاه وأسفل منه من يرى ضرورة المحافظة على سكينتهم كى يحافظوا على سكينته ، ثم هو لايجد بعد فى هذا الطابق مايعينه على مرحه ورياضته . انما البيت الذى فيه النعمة والسعادة هو ماتسع لحديقة وملعب وكفل لصاحبه سداد مايحتاج اليه وما يشتهيه. وما اكثر ماتكفل بيوت الخرطوم هذه الحاجات

ويذهب المقيمون بالخرطوم فى تحبيذ مدينتهم الى أكثر من هذا ، فهم يسألونك : الا ترى هذا الشارع الجميل الممتد على شاطىء النيل الازرق مابين سراى الحاكم العام وحديقة الحيوانات

والواصل الى المقرن ؟ ألا ترى المبانى على جانبه تحيط بها خضرة الزرع الناضر وقد قامت فيها الاشجار باسقة فاشتملت اكثر المنازل حتى لتكاد تحسب القصر المنيف كوسجا فى ظلال حديقة ؟ وفى هذا الشارع يقوم فندق (الجراند) وهو يضارع أبهى فنادق العواصم العامرة بنظامه وظرفه وبالحديقة الغناء الواسعة المحيطة به . وحديقة الحيوانات الى جانبه فيها مسرح للعين ونزهة للخاطر بما تحتوى من ضوار وكواسر ومن طير ووحش وغزال . ثم ان بالخرطوم من اماكن التجارة مالا تطمع فيه مدينة فى حجمها وعدد سكانها : فيها متاجر واسعة يرد اليها كل ماينتجه العالم المتمدن من انواع الصناعة ومواد الترف ، وبعض هذه المتاجر كبير الى حد يكاد ينافس معه أماكن التجارة الكبيرة بالقاهرة . وما عليك الا أن تزور السوق لترى فيها محلا لدافبس براين ينافسه محل لفانيان الارمنى ، ولترى كذلك محلا لكباتو الرومى ولمرهج السورى ولترى غير هذه من الاماكن مالا تأبى مصر القاهرة أن تنافس به مدائن العالم .

وليس للغريب النازل بالخرطوم أن ينعى عليها عدم توفر المجتمعات العامة بها . ففيها قهوات وبارات ومطاعم . ولئن كان هذا كله قليلا وكان غير مأهول فلان سكان المدينة قليلون لايزيدون عن ثلاثين الفا ولان أهلها اعتادوا عيش النوادى يجتمع الى كل ناد من اتفقوا جنسا ولغه ودينا ، فليس بهم الى هذه المجتمعات من حاجه .

وفى هذا الذى يقوله سكان الخرطوم جانب من الحق غير قليل . وفيه مايدل على أن النظرة الاولى لهذه المدينة الجديدة المختلطة تسرف فى الانتقاص منها والجناية عليها . لكن هذه النظرة الاولى تحتوى من الحق هى الاخرى جانبا غير قليل . فهذا النوع الذى يصفون لك من الطمأنينة والسكينة قاصر على جماعة الموظفين والقائمين بأمر الحكم . ولئن كان اكثر المقيمين بالخرطوم موظفين وكان من بها من تجار ينتمى كل منهم الى طائفة يجد فى الانتماء لها متاعه فانت لاتكاد تشعر فى

الخرطوم بحياة المدنية عنى ماتألفها فى العواصم التى تجمع الموظفين والتجار وأرباب الصناعة والفن والعلم وماتنشئه هذه الحياة من جو فكرى تنمو فيه الاراء المختلفة متآزرة مرة متضاربة اخرى عاملة دائما للسير بالانسانية المحيطة بها فى سبيل الرقى والتقدم

وهذا طبيعى ان كان السودانيون قليلين فى الخرطوم جد القلة ، وكانت حياة الطائفة الراقية منهم متصلة بالحكومة اتصالا له من الصبغة السياسية اكثر مما له من اية صبغة اخرى . ذلك بان ام درمان ما تزال للسودانيين هى المأوى وهى الملجأ . اليها تحن قلوبهم لانها عاصمة اسلافهم وان كانوا لا يملكون الدفاع عنها لتكون عاصمة الجميع وملجأهم ومأواهم .

هذه الصورة الخاصة بالخرطوم ترجع على ما ذكرنا الى انها مدينة جديدة لما تمض خمسون سنة على عمارتها للمرة الاخيرة ، والى انها بنيت هذه المرة الاخيرة لتسد حاجات المستعمرين ولتقدم اليهم مايستطاع من مواد النعمة والترف ومن اجل ذلك لايستطيع النازل بالخرطوم ان يرى بها مايكشف له عن معنى الحياة الوطنية فى هذه الربوع المترامية الاطراف . وانت اذا أردت أن تعرف شيئا من معنى هذه الحياة فلا سبيل لك الا أن تقصد الى الديم حيث تقوم « تكلات » السودانيين المبنيه من الطين والقائمة فى « ديم » الوطنيين ترى شبهة الحياة السودانية المحيطة بالخرطوم .

و « الديم » يبعد عن الخرطوم مدى غير قليل . وهو يعيد الى ذاكرتك حين تراه صور «العزب» القديمة التى يقطنها « التملية » والمستأجرون فى ارياف مصر . والديم كالعزب القديمة لامنافذ لمنازله المكونة من غرف ارضية بابها هو الفتحة الوحيدة فيها . منه يدخل الهواء والنور والشمس كما يدخل الناس والدواب .

ولما كانت الخرطوم مقام المستعمرين ومن احاط بهم من التجار الاروام والسوريين ومن لاذ بهم من بعض السودانيين فالحياة فيها اقرب للحياة الغربية فى كثير من مظاهرها . وانك لترى



وعلق على صدور أعيان السودان الصالحين أوسمة صيغ أكثرها صلبانا ماكانوا ليرضوا أن تمسها أيديهم لولا أنها تحمل معنى الشرف والتقدير

متاجرها متسعة على طراز المتاجر الاوربية كما ترى اكثر التجار فيها اشد بالاوربيين اتصالا . وفى سبيل هذه الحياة الغربية يرضى المقيمون بالخرطوم ان يجعلوا للحوم والفواكه والخضر المحفوظة فى علب الصفيح اوالزنك حظا كبيرا فى قوام حياتهم، برغم ما يمكن ان يعترض به اولو العلم فى شؤون الصحة على هذه الاطعمة المحفوظة ، وبرغم ارتفاع اثمان هذه المواد التى ترد الى الخرطوم من بلاد بعيدة. لكن لاهل الخرطوم فى انخفاض اثمان الحاجيات الاخرى التى تنمو وتربى فى البلاد نفسها مايعوضهم بعض الشىء عن غلاء أثمان الواردات وما يخفف بعض الشىء كذلك من الاعتراضات الصحية التى يطعن بها على الاطعمة المحفوظة . فالغنم والديكة الرومية وكلاهما طعام صالح شهى رخيصة غاية الرخص . فريال يكفى ثمنا « لاوزى » لذيذ او لديك رومى أكثر منه لذة . ويرى بعض اخواننا المصريين المقيمين بالخرطوم والمتفننين فى الطعام أن الديكة الرومية تحتاج بعد أن تشترى بهذا الثمن البخس الى زمن تقيمه بالمنزل لتسمن وتلذ . لكن الاكثرين يرونها لذيذة من غير حاجة الى هذه العناية .

أما الخضر والفاكهة فنادرة جد الندرة فى الخرطوم وفى السودان جميعا حتى لتنقطع فى بعض الفصول انقطاعا تاما وحتى لترى الوارد منها من الخارج تتخاطفه الايدى قبل أن يصل الى الاسواق . ولذلك كانت اللحوم الغذاء الاساسى للمقيمين هناك ، وكان لها عليهم من الاثر مالها على أكلة اللحوم لولا حضارة أشربتها دماؤهم أجيالا طويلة فلا تستطيع شهور أو سنوات أن تقتلعها من طبائعهم اقتلاعا .

على أن الخرطوم تمتاز مع ذلك كله بانها مقر حكومة ذات نشاط عظيم . فاذا كانت مدينة تنقصها حياة المدنية وينقصها تاريخ المدائن فهى مستقر نشاط كبير للموظفين من اجناسهم المختلفة. وهى لذلك أكثر شبها بالمعمل Laboratoire وهذه الصورة منها تستحق أن تكون موضوع بحث مستقل وعناية خاصة .

عيد الملك أو يوم الملك

اثر تتويج صاحب الجلالة جورج الخامس ملكا على انكلترا فى أواخر سنة ١٩١١ سافر على عادة اسلافه ليتوج امبراطورا للهند . وفيما هو فى طريق عودته مر بالسودان وزار الخرطوم فى ١٧ يناير سنة ١٩١٢ . وقد اعتبرت حكومة السودان هذه الزيارة بمثابة تتويج لجلالته امبراطورا للسودان واعتبرت يوم ١٧ يناير يوم عيد رسمى كأنه عيد جلوس جلالته على عرش السودان . ففى هذا التاريخ من كل عام يرسل حاكم السودان العام برقية الى جلالته بالنيابة عن أهالى السودان يعرب لجلالته فيها عن تعلقهم بعرشه واخلاصهم له فيرد جلالته شاكرا أهالى السودان مظهرا حرصه وحرص جلالة الملكة على رغد السودان وتقدمه . وفى هذا التاريخ من كل عام تقفل دور الحكومة وتزين الخرطوم بزينة العيد ويقيم الحاكم العام بسرايه حفلة شائقة توزع فيها الاوسمة التى تنعم بها حكومة ملك انكلترا على رعاياها من أهل السودان اعترافا بولائهم وتقديرا لاخلاصهم ولما يقومون به من جليل الخدمة للسودان وللامبراطوريه

وصادف أن كان يوم ١٧ يناير سنة ١٩٢٦ يوم أحد ، فتأجل الاحتفال بعيد الملك الى يوم الاثنين بعده . ولما كان مندوب انكلترا السامى لمصر والسودان قادما لافتتاح خزان سنار فقد جعلت حفلة هذا العيد التى تقام فى سراى الحاكم العام تحت اشرافه ورعايته . يوزع هو فيها ما تنعم به الحكومة البريطانية من الاوسمة ويقوم من المراسم بما تقضى به هذه الرعاية .

وسراى الحاكم العام جديرة بأن تقام فيها مثل هذه الحفلة

وما هو أفخم منها . فقد أقيمت على أثر فتح السودان فى أواخر عام ١٨٩٨ حيث كانت تقوم السراى التى قتل دراويش المهدى فيها غردون باشا والتى كانت مقر حاكم السودان من قبل مصر . وقد روعى فى اقامتها ما يجب لها من العظمة والفخامة . وهى تطل بمبانيها على النيل الازرق ، ولها عنده بابها البحرى . وتطل من الجهة القبلية على متنزه واسع الارجاء مترامى الانحاء بديع النظام يقوم فى آخره الباب القبلى المؤدى الى شارع فكتوريا فالى محطة الخرطوم .

وانت اذا دخلت الى السراى من جانب النيل الازرق قابلك لاول تخطيك الباب دهليز تتصل به غرفة انتظار من ناحية وتتصل به من الاخرى غرف عديدة متداخلة أعدت لموظفى الحكومة المتصلين بالسراى . وجدران هذا الدهليز مزينة كلها بعدة الحرب وآلته . فمنها قبعات وحراب مختلفة اللون والشكل ، لكنها جميعا قبعات الفرق الانكليزيه وحرابها . وعلى الجدران رايات الفرسان الانكليزية . فاذا انت تخطيت الدهليز وجدت افقيا عليه دهليزا اخر طويلا يمتد من الجانبين الى ناحيتى السراى الشرقية والغربية . ويطل هذا الدهليز الافقى على ساحة يقوم على جانبيها جناحان خصص احدهما للحاكم العام واهله وجعل الاخر لضيوفه . والدهاليز والغرف والاجنحة كلها بادية الفخامة والمهابة . ومن فوق السراى يرفرف العلمان المصرى والانكليزى

اما حديقة السراى او بالاحرى متنزهها فقد فرشت ارضه بسندس الجازون والحشائش الصغيرة وقامت فى جوانبه وفى اواسطه اشجار باسقة كان ورقها فى هذا الفصل الذى يذبل فيه ورق الشجر فى مصر ويتعرى من كل ورق فى اوربا اخضر ذا رواء وبهجة . ولا عجب ، فاجمل ايام السنة فى الخرطوم هى ما يقابل ايام الشتاء . وما بالك بطقس نهاره نهار الربيع وليله اخريات الصيف وكل ما فيه من مظاهر الحياة بسام بديع الابتسام .

اصبحت الخرطوم يوم الاثنين اذن فى لباس العيد . كانت الرايات والاعلام ترفرف فى شارع فكتوريا وفى مقدمة بعض الحوانيت والمتاجر . وكان الحاكم العام قد دعا الى حفلة شاى تقام فى سرايه بعد ظهر ذلك اليوم عددا يزيد على الثمانمائة من بينهم مائة وعشرة من اعيان السودانيين ورؤساء القبائل والعشائر فيهامن لا يقيمون بالخرطوم كمادعا اعيان السودانيين بالخرطوم ودعاكبار الموظفين وكل ذى مكانة من غير السودانيين . وبهؤلاء وبزينة العيد خرجت المدينة من صمتها الموحش بعض الشىء . وكان اعيان السودانيين فى جببهم الحمراء والزرقاء المطرزة بالذهب وبسيوفهم الموهة اغمادها بالذهب كذلك اكثر ما خلع على منظر العيد بهجة وزينة .

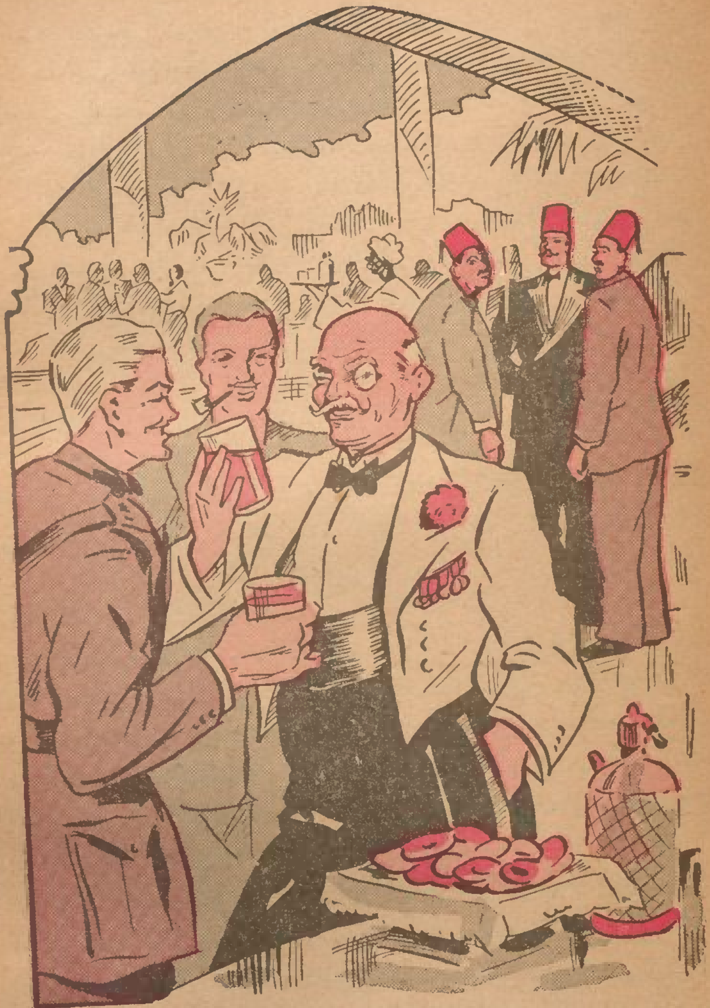
فى الساعة العاشرة من صباح ذلك اليوم استقبل الحاكم العام وقليل من رجاله اللورد لويد مندوب انكلترا السامى الذى وصل ساعتئذ محطة الخرطوم قادما من مصر ثم قصد واياه سرايه . ولم يكن فى انتظاره بالسراى غير عشرة من اكابر اعيان السودان صافحهم المندوب السامى وقرينته ثم صعدا الى غرفهما .

ولما كانت الساعة الرابعة قدحددت موعدا لحفلة الشاى حيث يقدم المندوب السامى اوسمة الشرف لاربابها هرع المدعوون الى سراى الحاكم العام ، حوالى هذه الساعة ، ومنهم جماعة « الرسميين » ارتدوا ملابسهم الرسمية وتقلدوا نياشينهم واوسمتهم ، ومنهم اعيان السودان تقلدوا فوق عباءاتهم الحمراء اوالكحلية المطرزة بالقصب المذهب وسيوفهم الموشاة الاغماد بوشى الذهب والفضة ، ومنهم غير الرسميين وغير اعيان السودان من ذهبوا فى ملابس كل يوم . وبذلك كانت حديقة السراى معرضا لاكثر ما يمكن ان يتصوره الخيال من الازياء تباينا واختلافا . فكنت ترى الردنجوت والطربوش لبسه الموظفون فى الحكومة المصرية من المصريين والانكليز وقد حلى كثيرون منهم صدورهم بالنياشين المصريه . وكنت ترى ملابس

موظفى حكومة السودان المدنيين اتخـــذت من القماش الابيــض وفصلت على صورة « الجاكت » والعمامة والقفطان والجبة ترداها الموظفون الشرعيون كالقضـــاة والمفتى وواحد او اثنـــان غير هؤلاء . والفـــراك او البنجور ومعها القبعة العالية على بعض اعيان السوريين او الاروام من التجار والمقيمين بالســـودان . وجبب حكومة السودان الرسمية على اعيان السودان . وبين هذا الجمع المتقمش بأردية المقابلة عدد كبير فى الزى العادى على مختلف اشكاله وألوانه .

تزاحمت هذه الازياء المختلفة المتناقضة المجتمعة فى هذا المكان وجعلت تتدافع نحو ســـاحة السراى . ذلك ان الحاكم العام والمندوب الســـامى جلسا الى منضدة فوق هذه الساحة وجلس حولهما ضيوفهما . كذلك جلس عدد كبير من الموظفين والاعيان الذين تقرر الانعام عليهم بالاوسمة الى جانب من الساحة المحاطـة بداربزون والمرتفعة فــوق ارض الحديقة بدرجات . وكان الحاكم العام قد وقف يتلو البرقية التى ارسل بها جلالة ملك انكلـــترا بالنيـــابة عن اهالى الســـودان ورد جلالة الملك جورج عليها . فلما اتم تلاوته وترجمها فضيلة مفتى السودان وزع المنـدوب السامى الاوسمة على أربابها . ومشاهـــدة ذلك كـله هى التى ادت الى ذلك التدافع بالمناكب بين كل تلك الازياء .

لذلك ما كادت هذه المراسم تنتهى حتى انفرط عقد المناكب المتراصـــة وانقلب مـــدها نحو ساحة السراى جزرا فى انحـاء الحديقة الواسعة . ونزل المنعم عليهم من عليتهم وانخرطوا فى سلك المدعوين تميزهـــم اوســـمتهم . واحدث نزولهم الى الناس شيئا من الحركة سببها أسراع الناس اليهـــم يهنئونهم بمـــا حازوا من ثقة عاليـــه . فـكانت الايـدى تتصافح والشفاه تبتسم وحدق عيون المنعم عليهـــم يلمع بمعانى الغبطة والرضا وتنخفض جفونهم احيانا فى صورة التواضع والحياء مما تبتهج به آذانهم من عبارات تقـــدير المهنئين وتمنياتهـــم « الخالصة » لهم دوام الرفعـــة ومثوبة رضا الحاكم . على ان نظر الغــريب عن الديار كــان



كان الانجليز فرحين ، أما المصريون فكان يخالجهم شعور الاسف وتأنيب الضمير

يسترعيه ما علق على صدور اعيان السودان الصالحين من اوسمة صيغ اكثرها صلبانا ماكانوا ليرضوا ان تمسها ايديهم لولا ما لها من معنى التقدير والتشريف . ثم ازداد العقد انفراطا وقصد كل الى مائدة من موائد الشاى المبعثرة على نظام ظريف فى انحاء المتنزه الجميل

كان اهل السودان فى ازيائهم المطرزة اكثر استرعاء للنظر من كل من سواهم . ذلك بانهم اهل البلاد وروح هذا الجو الصحو الذى يظلنا . على ان استرعاءهم لنظر الاوربيين كان راجعا لغرابة ازيائهم وحالهم اكثر منه الى اى معنى نفسانى خاص . أما الشرقيون عامة وابناء وادى النيل خاصة فكان للمعنى النفسانى عليهم اكبر الاثر . ولاعجب . فبين الغربى والسودان من الفوارق فى اللون واللباس واللغه والدين والعوائد والعقائد ما يجعل السودانى أمام الاوربى لغزا تتلهى عيناه بصورته الظاهرة ويعجز ادراكه عن استكناه ماتنطوى عليه روحه ونفسه الدخيلة من هزات ينبعث منها تقديره للحياة وغايته منها وفهمه معناها . أما الشرقى فيدرك غير قليل من هذه الهزات الدخيلة لانه يشارك السودانى فيها كما يشاركه فى اصل جنسه وفى لغته وعاداته . واما ابن النيل فيسترعى السودانى نظره كما يسترعى نظرك قريب او اخ غاب عنك سنين طوالا فاذا رأيته ورايت ابناءه واقاربه شعرت بين اضالعك بشوق وحنين وحدقت عيناك بهؤلاء الابناء والاقارب الذى يجرى فى عروقهم الدم الذى يجرى فى عروقك وتلذعهم الالام التى تلذعك وتنبض قلوبهم بالامال التى ينبض بها قلبك

احاط ببعض موائد الشاى جماعة من هؤلاء الاعيان من اهالى السودان . وكان معى صديق سودانى عرفته يوم نزلت الخرطوم له بكل هؤلاء الاعيان صلة ومعرفة ، فسار واياى يحدث بينى وبينهم من التعارف ما يسمح به المقام . ولقد شعرت واحسبهم شعروا اثناء هذا التعارف القصير باحساس الاحتياط والحذر الذى لاحظته على اخواننا المصريين من قابلونا .

فى حلفا وفى العطبرة وفى الخرطوم فلم يزد ماتبادلنا وجماعة أعيان السودان فى حديقة سراى السير جوفرى آرشر حاكم السودان العام على عبارات التحية البسيطة وربما كانت هذه مبالغة فى الحذر لايقتضيها الموقف . لكنى كنت من ضيوف حاكم السودان العام فكان واجباً أن أرعى لهذه الضيافة كل حقوقها .

وجلست الى مائدة جلس اليها السيد احمد الميرغنى وفضيلة مفتى السودان وجماعة آخرون كانوا كلهم مثال الرقة وحسن الضيافة . وفيما نحن جلوس اقبل السير السيد على الميرغنى باشا فقام الجمع تحية له واجلالا وأقبل كل من الحاضرين عليه يقبل يده ، وجلس الى جانبى فى وقار وهيبة وفيما هو جالس كان أعيان السودان يقبلون عليه وينحنون على يده يقبلونها ظاهرها وباطنها ويرجونه الرضى عنهم وحسن الدعاء لهم . وكانوا كذلك يقبلون يد أخيه السيد احمد . لكنى أشهد أنى مارأيت ايمانا كهذا الذى رأيته مرتسما على وجوه هؤلاء الناس باديا فى نظراتهم متجليا فى كل حركاتهم حين اقبالهم مشرعين فى خشوع واجلال يقبلون يد السيد على وينظرون من طرف كسير نظرة كلها الايمان والاجلال ورجاء الرضى وحسن الدعاء . ومن هؤلاء الاعيان شبان تلوح عليهم مظاهر القوة والاعتداد بالنفس ، ومنهم كهول وشيوخ ترى على عوارضهم من الشيب بياضا فى سواد ، ولكل من هؤلاء الشبان والشيوخ سلطان على من يدينون له من القبائل والعشائر لكنه يتقدم بهذا السلطان امام السيد على وهو مؤمن بأن كلمة الرضى من لدنه أقوى من كل سلطان .

وللسيد الميرغنى احترام خاص لمكانته هذه عند النازلين فى السودان من كل الاجناس والطوائف . ويزيد فى هذا الاحترام ماله من صفات تملى على من يتصل به اكباره وحسن تقديره . وهو نحيف قصير القوام دقيق تقاطيع الوجه تنم عيناه ببريقهما الشديد عن كثير من الذكاء والدهاء وتطوق ثغره العربى الرقيق الشفتين ابتسامة دائمة تجعل محياه الجذاب دائم الاشراق . وتعلو جبينه قلنسوة

اقرب فى صورتها الى القلبق التركى القديم الذى كان يلبسه أنور باشا وان لم تكن سوداء مثله بل اجتمعت عليها صنوف من الوان سوداء ومذهبة متوازية متقاطعة . ويحيط بالقلنسوة عمامة يصعب تحديد لونها لكن لها مع لون العمامة اتساقا وتجاوبا حسنا . أما قفطانه وجبته فعلى صورة مايلبسه شيوخنا مع شيء كثير من الاحتشام فى ألوانها .

ومع ماكان باديا من الحبور والبهجة على المنعم عليهم بالاوسمة والرتب من أعيان السودان وموظفى حكومته فلا ريب أن أشد من كانت علائم الغبطة بادية عليهم فى هذه الحفلة هم الانكليز سواء منهم من كانوا فى حكومة السودان ومن كانوا ضيوفا أو سائحين

أما المصريون فكان يخالج نفوسهم شعور مبهم يختلط فيه الاسف بالالم بتأنيب الضمير . وكنت تراهم يسير كل منهم منفردا أكثر الوقت وينظر الى ماحوله بعين الغريب الحائر . ولم يشذ اثنان من الباشوات المصريين نزلا ضيوفا بسراى الحاكم العام عن هذه القاعدة .

وحوالى منتصف الساعة السادسة نزل لورد ولادى لويد من ساحة السراى الى الحديقة ومعهما حاكم السودان العام وبعض الموظفين ، وجعل اللورد وقرينته يطوفان بالحاضرين عموما وأهل السودان خصوصا يتعارفون بهم ويصافحونهم يدا بيد . قال صديق :

ـ ان كل شيء ياصاح مستحب مادام فيه خدمة للامبراطورية ولادى لويد على رقتها واتصالها بالعائلة المالكة فى انكلترا تسعد بمصافحة ثمانمائة يد مادام فى ذلك للامبراطورية سعادة وعظمة

كانت الشمس قد انحدرت الى المغيب فبدأ الناس ينصرفون جماعات بعضها اثر بعض . وانصرفت ومن معى ميممين أحد الأندية ونحن نذكر عيد الملك يقام فى الخرطوم تذكارا لمرور جلالة ملك انكلترا بها وفيما نحن فى حديثنا حانت التفاتة من أحدنا الى أعلى سراى الحاكم فرد طرفه الينا وقال :

ـ على كل حال فما يزال العلم المصرى خفاقا الى جانب العلم البريطانى فوق السراى . وفى هذا لنا بعض العزاء عن أن يكون لملك مصر فى الخرطوم عيد كعيد ملك انكلترا .

حكومة السودان فى الخرطوم

فى مقدمة كتاب لورد كرومر المعنون « عباس الثانى » عبارة يحسن الوقوف عليها لحسن تقدير وسائل السياسة البريطانية فى بلوغ غاياتها وحسن ادراك ما تبديه حكومة السودان فى الوقت الحاضر من مظاهر النشاط . قال اللورد :

« ان حجر الزاوية فى سياسة مصر والسودان ان نضع محل الاعتبار ان ليس ثمة رابطة بين الحاكم والمحكوم عند انعدام روابط الجنس واللغة والدين والعادات الاجتماعية الا المصالح المادية . وأعظم هذه المصالح خطرا ماكان متعلقا بالاعباء المالية .. لذلك تدعونا كل الظروف السياسية الى ان نخضع جميع الاعتبارات الى ضرورة عامة هى الحرص على تخفيض الضرائب وعلى المسئولين عن ادارة مصر والسودان ان يعتمدوا على انفسهم فى تنفيذ سياستهم على القاعدة المشار اليها . فقليل من يعضدهم فى هذه السياسة ذلك بأن الاقتصاد ليس امرا مرضيا عند الناس . وكثير من يوجه اليهم جارح النقد . وهم لا يستطيعون الاعتماد الى حد كبير على تأييد الرأى العام المصرى او البريطانى . فالانجليز يميلون عادة الى الاخذ بما سبق الاخذ به فى انكلترا من أعمال وتجارب . وقد تزايدت نفقات الدولة عندهم اخيرا الى حد كبير وثقلت الاعباء العامة الملقاة على عاتقهم الى حد كانوا يحسبونه مستحيلا منذ وقت قريب . وكان من أثر ذلك أن ساء تقدير الرأى العام للاقتصاد وان تبلد الشعور القومى الى حد ما بازاء ادارة الشئون المالية فى البلاد الخاضعه لانكلترا .

« ولن ينفك كثير من كبار الساسة الانكليز ولن تنفك الصحافه القوية السلطان عن مواصلة جهودهم فى الحث على انهاض التعليم ونشره فى مصر اذ يرونه الاساس الاول لبناء الحكم الذاتى . اما انا فلا اظن ان مثل ما يلقى فى المدارس والكليات من تعليم كان ليعد المصريين يوما ما للحكم انفسهم ما لم يحوروا طابعهم القومى مما لا يتم الا تدريجا . وهذه ليست نقطة البحث الان . فانما اريد ان ابحث فى نفقات التعليم وان ابين سوء الراى فى التوسع فيه الى حد فرض ضرائب باهظة .

« وثمت هجمات من نواحى اخرى يجب صدها . فقد بلغ الادارى الغيور ، الذى يقدر ما يستطيع القيام به من خير ، فى زيادة الطرق والكبارى والمستشفيات وسائر معدات المدنية الحديثة ثم يجهل ، مع الحاجه ، النتائج البعيدة التى تترتب على ما تحتاج اليه سرعة تحقيق هذه المشروعات من طائل النفقات

« لذلك يحسن بالساسة المسئولين عن شئون مصر والسودان ، بالغا ما بلغ عطفهم على هذه المشروعات حين مجرد النظر الى مزاياها ، ان يتعدوا عن الساسة الخياليين ابتعادهم عن رجال الاداره فى الدواوين ، وان يرجئوا ما يستدعى طائل النفقات من تلك المشروعات التى تستهويهم حتى يثقوا بأن موارد الدولة تحتملها دون ان يثقلوا كاهل الجمهور بالضرائب . ليشجعوا انتشار التعليم وخصوصا التعليم الصناعى وتعليم الاناث . وليشجعوا كذلك المشروعات العامه وغيرها من اسباب التقدم على ان تكون هذا التشجيع بمقدار لا يقتضى الالتجاء الى فرض ضرائب جديدة ثقيلة » .

ليس بين الحاكم والمحكوم ، عند انعدام روابط الجنس واللغة والدين والعادات ، غير الرابطة المادية . هذه كلمه لورد كرومر التى تلخص كل ما جاء فى العبارة التى نقلناها بل التى تلخص الى حد كبير سياسة انكلترا فى مستعمراتها وفى البلاد التابعة لها . وهى التى تجعل هذه السياسة الاستعمارية البريطانية

امتيازا وتفوقا على غيرها من سياسة الدول الاستعمارية الاخرى . فليس من اغراض السياسه البريطانية الاساسية ان تنشر الثقافة الانجلوسكسونية فى البلاد التى تحكمها . وليس من غرضها ان تنشر فيها مبادىء الثورة الفرنسيه ولا ان تحمى فيها الهيئات الدينية المسيحية . كل ذلك قد يحدث بطبيعة تفوق النفوذ الانكليزى . لكنه ليس غرضا اساسيا مقصودا لذاته . انما الغرض الاساسى هو تلك الروابط المادية بين انكلترا وسائر اجزاء الامبراطورية . ولتكون هذه الروابط متينة مأمونة العواقب يجب ان لا تكون فائدتها لانكلترا وحدها ، بل يجب ان تشعر البلاد المحكومة بان لها من ورائها فائدة محسوسة اول مظاهرها نقص النفقات العامة نقصا يترتب عليه تخفيض الضرائب وزيادة رفاهية المحكومين زيادة تشعرهم بالطمأنينة الى حاكميهم .

وقد اتبعت هذه السياسة فى مصر بدقة تامة مدة وجود لورد كرومر بها . ويمكن ان يقال انها اتبعت الى ما قبل الحرب العالمية الاولى .. لكن هذه الحرب أدت الى انقلاب كان من ورائه ان غير المصريون من طابعهم القومى على ما ورد فى عبارة لورد كرومر .. وكان من وراء ذلك ان اعلن استقلال مصر . اما السودان وحكومته فى الخرطوم فما تزال السياسه الجاريه فيه هى هذه السياسة التى رسمها لورد كرومر فى كلمته السابقة .

فمع ان كثيرين من المقيمين بالخرطوم يشكون من فداحة الضرائب التى يؤدونها ، والتى تبلغ ربع قيمة ريع المبانى القائمة بها ، تعمل حكومة السودان على ان تكون الضرائب فى سائر انحاء البلاد مخفضة حتى لا يشعر اهل السودان بثقلها . وليس يضير السياسة البريطانية ان تكون ضرائب الخرطوم فادحة واكثر المقيمين فى الخرطوم ، كما رايت من قبل ، ليسوا سودانيين ، بل اكثرهم موظفون وتجار من المصريين والسوريين والاروام وغيرهم . وهؤلاء لا شىء من الخطر فى ان تعمى

الحكومة بتخفيض الضرائب التى يدفعونها ويكفيهم أن تعنى بتوفير كل أسباب الراحة والطمأنينة لهم. وتخفيض الضرائب بالنسبة لاهالى السودان أنفسهم موضع عناية دائمة . وقد عهد بها وبنظام أعباء السودان المالية وميزانية ايراداته ومصروفاته الى لورد شستر أحد أكابر الاقتصاديين والماليين الانكليز . وبرغم ما أبداه من ميل الى ترك هذا المنصب الشاق فان رجاء حكومة السودان اياه أن يبقى لمصلحة السودان ولمصلحة الامبراطورية كان أكبر على نفسه أثرا من ميله الخاص فبقى بالخرطوم ينفق أكثر بكثير من المرتب الضخم الذى يتقاضاه راضيا بالحياة فى هذه البلاد القاصية ليخدم الامبراطورية وليخدم السودان معها .

وتخفيف عبء الضرائب يترتب عليه نقص فى ايراد الخزانة العامة فاذا لم يقابل هذا النقص بموارد اخرى تدر ضرائب مباشرة أو غير مباشرة تعذر على الحكومة القيام بواجبها . وميزانية السودان تزداد عاما بعد عام بسبب الموارد الجديدة التى ماتفتأ حكومة السودان تسعى لخلقها لتكفل استقلال السودان عماكان من قبل فى حاجة اليه وما كانت مصر تؤديه له . وقد يدهشك أن تكون زيادة السكان من بين هذه الموارد الجديدة ، كما أن زيادة نشاط السكان من بين هذه الموارد أيضا . وهاتان الزيادتان عنيت حكومة السودان منذ زمان بعيد بتوفيرهما من طريق توفير أسباب الصحة فى البلاد . فقد كانت حمى الملاريا ما يفتك بالسودانيين فتكا ذريعا وما يضعف فيهم أسباب النشاط وما تزال هذه الحمى منتشرة فى بعض أنحاء السودان . لكن الحكومة قاومتها فى مناطق كثيرة مقاومة شديدة انتجت ابادتها فى هذه المناطق ابادة تامة . وماتزال الحرب المعلنة على الملاريا ناشبة وما تزال حكومة السودان تعمل على مطاردتها لمضاعفة عدد السكان ولمضاعفة نشاطهم .

كذلك عنيت الحكومة بمحاربة الزهرى المنتشر فى السودان انتشارا مروعا والذى يجنى على الاعقاب جنايته على الجيل الحاضر وانك لتعجب أشد الاعجاب بما تبدى الحكومة من نشاط وعناية

فى هذا السبيل . فهى تعالج المرضى بأجر زهيد الى حد يجعله فى حكم المجان . تنشر الدعوة لهذا العلاج فى طول البلاد وعرضها بمختلف الوسائل . وأطباء الحكومة من السوريين وغير السوريين المنتشرين فى أقاصى هذه البلاد الشاسعة يعاونون الحكومة المركزية بالخرطوم فى هذه المجهودات خير معونة .

ومن طريق زيادة السكان وزيادة نشاطهم ترجو الحكومة أن تجد اليد العاملة بمقدار كاف لنشر زراعة القطن فى البلاد . فملايين الافدنة فى الجزيرة الواقعة بين النيلين الازرق والابيض صالحة لانتاج القطن كما أن أراضى واسعة أخرى صالحة لانتاجه . واذا كانت التجارب التى تمت فى الجزيرة الى اليوم قد أسفرت عن نقص تدريجى فى المحصول بسبب الآفات التى تصيبه حتى أصبح الفدان الذى كان ينتج أول زرعة خمسة قناطير ونصف القنطار من صنف السكلاريدس لا ينتج الا قنطارين وربع القنطار بعد اربع أو خمس سنين من زراعته فان شركة الجزيرة وحكومة السودان تأملان التغلب على هذه الآفات بالوسائل العلمية . ومتى كان ذلك ممكنا فمشكلة اليد العاملة هى المشكلة الكبرى . والتغلب عليها لا يكون الا بزيادة السكان وزيادة نشاطهم

ومسألة آفات القطن هى الآن من المسائل التى تستنفد من حكومة السودان عناية كبرى . وقد تخصص للبحث فى هذه الآفات وعلاجها اربعة عشر عالما نباتيا من خير علماء الانجليز فى هذا الامر يقيمون بالخرطوم كما ان فى لندرة جمعية علمية نباتية تتضامن وهؤلاء العلماء فى عملهم وابحاثهم . فاذا نجح هؤلاء فى مقاومة آفة القطن نجاح قلم الصحة فى مقاومة الملاريا والزهرى كفلت الحكومة محصولا وافرا من القطن يحقق الى حد كبير ماترمى السياسة الامبراطورية اليه من رغد السودانيين وفائدة انجلترا فائدة كبرى .

وفى انتظار تحقيق هذه الغايات تعمل الحكومة لاكثار الماشية وجعلها من مواد التصدير ذات الايراد كما تعمل لترويج حاصلات السودان ترويجا يتفق ومصلحة انجلترا

ولكى تكون هذه المجهودات منتجة يجب ان يكون الامن شاملا البلاد وان تكون فى سلم بعضها مع بعض . وهذا هو موضع عناية الحكومة الادارى . وهى فى سبيله لاتلاقى من المشقات ماتلاقيه حكومة متميدة بأنظمة خاصة ترمى الى حماية حرية الافراد فى صورها المختلفة . فنظام الاحكام العرفية مايزال هو النظام السائد فى السودان وكلمة الحاكم العام هى الكلمة العليا النافذة



ويبدو فى مصالح حكومة السودان المختلفة نشاط كبير . فأول مانزلنا الخرطوم فى الساعة الرابعة من بعد ظهر يوم السبت دعا مدير المخابرات - وهو كمدير الامن العام فى مصر - الصحفيين الى اجتماع عنده الساعة السادسة . وذهبت فى الموعد بعد ان اجتازت السيارة بى شوارع تربة ، وصعدت فى بناء قليل الارتفاع قليل الوجاهة والمهابة على سلم ضيق من حجر الجبل حتى انتهيت الى غرفة المدير . فألفيت الصحفيين جالسين على مقاعد ادركت لاول ما رأيتها انها احضرت خصيصا لهذه الغاية وان المكان ليس به عادة غير مقعد المدير . وكان هناك رئيس مصلحة التلغرافات فلما انتظم عقدنا شرح مدير المخابرات برنامج ايامنا فى الخرطوم وبرنامج حفلة افتتاح الخزان . فيوم الاحد للراحة من عناء السفر وليصنع كل به ماشاء . ويوم الاثنين عيد الملك والصحفيون مدعوون فيه لحضور حفلة الشاى . ويوم الثلاثاء لاعمل فيه . أما الاربعاء ففى مسائه يسافر الجميع الى مكوار حيث يحضرون الحفلة ليعودوا الى الخرطوم صباح الجمعة . ويوم الاحد يسافرون قافلين الى حلفا فالقاهرة .

على ان الغرض من الاجتماع عند مدير المخابرات لم يكن مجرد معرفة البرنامج ، بل كان لنتفاهم على طريقة ارسال البرقيات من مكوار ومن بركات ، من غير أن يرتبك الخط بكثرتها ،

ومن غير ان يرتبك الصحفيون اذا اضطروا الى الذهاب لمكاتب التلغراف والى دفع الاجور . وانتهى الحال بالاتفاق على ان تعطى الخطب التى ستلقى فى الاحتفال ظهر الاربعاء على ان لاتذاع الا بعد القائها ظهر الخميس . وكان ذلك يسيرا باعطاء الاشارة الى مصلحة التلغرافات فى القاهرة وفى لندره كى لاتوزع الخطب الا بعد صدور أوامر أخرى . واتفق كذلك على ان يرسل كل مندوب من مندوبى الصحافة عددا معينا من الكلمات لايتعداه حتى لايزدحم الخط وتتأخر الرسائل ، وعلى ان يدفع كل صحفى تأمينا بالخرطوم فلا يضطر الى الذهاب بنفسه الى مكتب التلغراف فى مكوار وبركات بل ترسل هذه المكاتب بمندوب من قبلها يتلقى التلغرافات من الصحفيين

وفى صباح اليوم التالى ذهبت اقابل رئيس مصلحة التلغرافات لادفع التأمين ولنتم التفاهم على ما اتفقنا بحضرة مدير المخابرات عليه . وكان معى صحفى ذهب لمثل الغاية التى ذهبت اليها ، فألفينا غرفة هذا الرئيس الانكليزى غاية فى البساطة ولم نجد عنده مانجلس عليه مما اضطره لاستعارة مقاعد من الغرف المجاورة . ولم يطل بيننا الحديث ولم يعد الغاية التى قصدنا اليه لقضائها ، فمى دقائق نادى اليه الموظفين المختصين فجاءوا لنا بالتذاكر الصحفية ، وتسلموا مبلغ التأمين الذى أردنا دفعه وتركنا المكتب بعد دقائق معدودة . وعلى أثر خروجنا اخذ اصحاب المقاعد مقاعدهم .

ونزلنا من عندهم فمررنا برئيس مكتب بريد الخرطوم ؛ وهو مصرى من الاقباط نه بالسودان اكثر من عشرين سنة ومع ماقابلنا به من البشر والحفاوة لم نجد عنده هو الآخر مقاعد نجلس اليها . ولما لم يكن لنا عنده عمل خاص استأذننا وظل منصرفا لعمله مكبا عليه . وسألته عن ساعات العمل فاذا متوسطها فى اليوم بين ست وثمان . لكنها مع هذا الانكباب على العمل تكفل انجاز حظ منه عظيم .

وهذا النشاط تشهده فى غير هذين من مصالح حكومة السودان . ولعل النظام العرفى الذى تخضع له هذه البلاد والذى يجعل كلمة الحاكم العام العليا فى كل شىء له اثره فى هذا النشاط الدائم . ولئن صح هذا لكان مصداقا لان المبادىء المطلقة لاوجود لها فى الحياة . فليس شىء خيرا مطلقا وليس شىء شرا مطلقا ، بل فى كل شىء من الخير والشر والنفع والضر نصيب . ومن استطاع ان يغلب جانب الخير فى شىء من الاشياء أو فى نظام من النظم فذلك العاقل الحكيم

على أن هذا النشاط الذى رأيت لايتعدى ماتقضى به الروابط المادية التى أشار اليها لورد كرومر فى كلمته التى صدرنا بها هذا الفصل . فكل ماسوى ادارة شؤون البلاد والعمل لزيادة انتاج أهلها لايظهر له فى حكومة السودان بالخرطوم أثر كبير . وقد رأيت فى العطبرة كيف تقف المدارس التابعة للحكومة عند تخريج صغار الموظفين ومن يقومون ببعض أعمال الدولة الحكومية كالكتابة والتلغراف . وكيف تقف مدرسة الامريكان عند تعليم الابناء بما لايزيد عن مقابل السنة الثالثة الابتدائية . وعناية الحكومة الرئيسية فى الخرطوم بشؤون التعليم لاتتجاوز مثل هذا الذى رأيت عند العطبره كثيرا . ففى الخرطوم حقا كلية غردون . وبها مدرسة للطب أنشئت حديثا وبنيت على طراز كليات انكلترا لكن التعليم فى كلية غردون لايتعدى التعليم الثانوى على نظامه القديم وبرامجه القديمة فى مصر ، اى أنه لايتعدى أن يكون وسيلة لتخريج موظفين أرقى من الموظفين الذين تخرجهم مدارس العطبرة وغيرها من البلاد الاخرى فى السودان . ومدرسة الطب لاتزال مدرسة حديثة وطلبتها قليلون وما يزال نظام تعليمهم غير محدد ، وهو يجب أن يتفق مع السياسة العامة التى ترمى الى اقامة العلائق المادية الحسنة بين الحاكمين والمحكومين ليس غير

وقد يكون لحكومة السودان العذر اذا تشبثت بهذه السياسة فى السودان . فالسودان بلاد واسعة مترامية الاطراف وأهلها مايزالون على جانب من السذاجة عظيم . وميزانيتها لاتتجاوز الى اليوم خمسة ملايين برغم مابذل من العناية لتنظيمها وزيادة



واذا غضبت الحكومة على أحد هؤلاء الزعماء استردت منه كسوته

ايراداتها . وما تزال طرق المواصلات فيها قليلة برغم سكة الحديد التى أنشأها الجيش المصرى بين حلفا والخرطوم وبرغم المنشآت التى تمت بعد ذلك فوصلت مابين الخرطوم والابيض ومابين العطبرة وبور سودان وكسلا . وما لم توطد الحكومة أركان الامن فى البلاد وتشعر المحكومين بأنها تجمع فى معاملتهم بين السلطان عليهم والبر بهم فليس يسيرا عليها أن تحقق مصلحة الامبراطورية ومصلحة السودان بالتبعية لها .

فأما شعور المحكومين بسلطان الحكومة عليهم فمظهره القوة المسلحة التى تغلبت على التعايشى وفتحت السودان وأخضعت عصاته . ولئن كانت هذه القوة الاولى مصرية فالانكليز يعتقدون أن وجودهم على رئاستها يجعل أهل البلاد يعتقدون انهم وحدهم هم أصحاب الكلمة سواء أبقيت هذه القوة فى البلاد ام اخرجت منها .

وأما بر الحكومة فمن مظاهره ماقدمنا من عنايتها بالسكان وصحتهم ونشاطهم وتخفيضها الضرائب المباشرة عليهم ، كما أن من مظاهره هذه الالقاب وكسى التشريفة التى وقفت على شىء من أمرها يوم عيد الملك وقدروى لى كبير من الموظفين بحكومة السودان ان الحكومة اذا غضبت على احد هؤلاء الزعماء استردت منه كسوته

وليكون الناس اكثر شعورا ببر الحكومة بهم تنظم الحكومة الدعوة فى انحاء البلاد للاشادة بهذا البر ولتذكر الناس بما كانوا خاضعين له من قبل من الوان الاضطهاد وما كان ينتابهم فى الماضى من مظالم ومغارم وعلل ، ولما كانت الصحافة قليلة الجدوى فى بلاد قل فيها من يقرأ ويكتب كانت الدعوى الشفوية على لسان موظفى الحكومة والمتصلين بها من الذين يتكلمون لغة البلاد ، سواء منهم من كان من اهلها ومن كان اجنبيا عنها ، هى العمدة فى هذه الدعوة التى تساعد الى حد كبير على تاييد النظام والطمأنينة فى ربوع السودان . على ان بعض الدعاة يغلون فى دعوتهم الى غير حد . واذا صح ما سمعته من ان احدهم ينسب وجود مرض الزهرى فى السودان الى ايام دخول العرب فيه منذ قرون ماضية كان ذلك ادل مايكون على المبالغة والاغراق فيها .

فان هذا المرض ـ الذى يسميه كثير من اهل الريف فى مصر « بالافرنجى » اشارة الى دخوله مع الافرنج ايام الحملة الفرنسية فى اواخر القرن الثامن عشر ـ لم يعرف فى مصر ولا فى السودان قبل ذلك التاريخ . دع جانب اغراق الدعاة فى تشويه الحكم المصرى فى السودان فهذا ما سمعته من كثير من كتاب الانكليز وخطبائهم فى انكلترا

على ان عدم جدوى الصحافة فى بلاد كالسودان لم يمنع حكومة السودان منذ الفتح من ان تشمل بعنايتها جريدة كانت من قبل ذات اتصال بجريدة المقطم فى مصر . تلك « حضارة السودان » . وقد ظلت هذه الجريدة متصلة بالمقطم الى ان اتجه نظر الحكومة الانكليزية لنزع السودان من نفوذ مصر . من حينئذ استقلت حضارة السودان وصارت متصلة بحكومة السودان وعهد بتحريرها الى واحد من اهالى السودان . الذين تعلموا فى الازهر .

وهذه خطوة فى تنفيذ السياسة البريطانية التى تقضى بأن تكون وظائف حكومة السودان للسودانيين قدر المستطاع وخطوة أخرى مثلها أن حرمت الحكومة على غير السودانيين الالتحاق بكلية غردون بعد ان كان المصريون والسوريون يلحقون بها . والغرض من ذلك ان يزداد عدد المتخرجين من هذه الكلية من اهالى البلاد لتسند اليهم الوظائف الصغيرة فى حكومة بلادهم . رغم ماكان من اخراج عدد كبير من الموظفين المصريين فما زال فى خدمة حكومة السودان عدد من المصريين أما السوريون فما زالوا فى خدمة حكومة السودان كما كانوا من قبل وما زالت الثقة بهم اكيده مطمئنة . وهم لاريب اهل لهذه الثقة لانهم يقومون بخدمة الحكومة القائمة خير قيام .. ولم لا وليست لهم ولا لبلادهم فى السودان مطالب سياسية تحرك منهم عصبا او عاطفة يخشى ان يكون لها فى السودان اثر

وهؤلاء الموظفون فى حكومة السودان من السوريين والمصريين ينفذون السياسة التى يرسمها هؤلاء الرؤساء بذمة ودقة . وهذه السياسة تتلخص فى تحسين العلاقات المادية بين الحاكمين والمحكومين . وهى من غير نزاع خير سياسة يمكن اتباعها فى بلاد لا تجمع الحاكم والمحكوم فيها رابطة من جنس او لغة او دين

يوم بأم درمان

قمت مبكرا فبصرت باشعة الشمس تطل من خلال النافذة المقفلة طول الليل وكانها يد امرؤوم تملس على ابنها بحنان وعطف كي توقظه من نومه . وسمعت وما ازال ناعما بدفء الغطاء اصوات العصافير فى حديقة الفندق وكلها البهجة بمشرق الشمس ويعود النهار والنور . وجاء الخادم بالشاى والبسكوت فطلبت اليه ان يحضر طعام الافطار بالغرفة حتى لا اضيع الوقت وكى أدرك وصديقى ترام الخرطوم الذى يقوم فى منتصف الساعة التاسعة قاصدا المقرن لتقلنا الباخرة بعد ذلك عبر النيل الى شواطىء امدرمان

وكنا عند المقرن حوالى الساعة التاسعة . وانتقلنا من الترام الى الباخرة وانتقل معنا كثيرون من السائحين ومع بعضهم عربة اتوا بها ليطوفوا ام درمان فيها ، كما انتقلت مع جماعة من الاهالى الحمر والدواب . وظل هؤلاء فى الطابق الاسفل بينما صعد الذين يدفعون اجر الدرجة الاولى الى الطابق الاعلى . وتحركت الباخرة على هون وفى هداة وسكون بعد ما انقضى ما كان لصفيرها قبيل تحركها من زفير فى الهواء وشهيق

واستدارت الباخرة فاذا أم درمان ما تزال فى الحجب واذا اكثر المسافرين يوجهون ابصارهم صوب الخرطوم يطمع كل منهم فى ان يشملها جميعا بنظرة واحدة وتبدى الشارع الممتد على شاطىء النيل الازرق قامت عليه الاشجار الضخمة مكللة الهام بخضرة زاهية ، كما تبدت من ورائه بعض مبانى الخرطوم وطرقها كأنها صوامع نساك نثرت فى الصحراء على مقربة من واحة ذات خصب

ونماء . وظلب الباخرة تستديرازاء جزيرة توتى زهاء ساعة
حتى اذا قاربنا الشاطىء وجه المسافرون ابصارهم صوب
عاصمة الدراويش ... الا ان للذين يعجبون بالخرطوم لعذرا
فهذه المدينة القديمة لا يزين شاطىء نيلها الابيض ما يزين
شاطىء نيل الخرطوم الازرق من شجر . بل يقع النظر عندمرسى
الباخرة على رمال صحراوية انت مضطر كى تتخطاها الى ان تغوص
اقدامك فيها . فاذا جزتها بعدجهد وبلغت تراما هو لترام
الخرطوم صنو توأم صادفت عينك من المساكن والمبانى مايزور
عنه بصرك لحقارته وقذارته . لكنك تشعر كلما سار الترام
وتغلغل فى المدينة انك فى مدينة سودانية حقا ، وترى بعد برهة
ان المبانى الواقعة عند المورد عنوان سىء لام درمان ، وان فيها
مثل ما فى الخرطوم من المنازل والمتاجر والمناظر وان لم يكن
فيها ما فى مقر حكومة السودان من أضواء الكهرباء ومن
مظاهر المدنية التى أقامها الحاكمون فى مقر حكمهم للترفيه
عن نفسهم ولتتيسر لهم الحياة فى جو وفى بيئة وفى وسط لم
يألفوها .

نزلنا من الترام عند متجر مصرى من أهل أسوان عرفناه فى
الخرطوم . ولست اغلو ان انا قلت ان هذا المتجر وبعض
المتاجر الواقعة الى جانبه اجمل وادعى للاحترام من اكثر متاجر
الخرطوم . على أن ذلك ليس عجبا وصاحبه يتصل بلانكشير
مباشرة وعنده فى مصر تجارة كبرى . وقد قابلنا بالترحاب
وسألنا ان كنا نشرب « الجبنة » والجبنة قهوة اهل السودان .
وانتظرت لارى اى نوع من القهوة يصنع هؤلاء الذين ما
زالوا يعيشون عيش البداوة . واستعرضت اثناء انتظارى
صنوف القهوة الساخنة والباردة مما يصنع فى مصر وفى اوربا .
فنحن فى مصر نطحن البن ونضعه فى الماء الى ان يغلى ثم
نشربه ، اما فى اوربا فيدقون البن حتى يتكسر ثم يصبون الماء
الغالى فى مصفاة وضع فيها البن كى يمر الماء به وينال خيره
وكنت افكر فى هذا حين جاءت « الجبنة » . افتدرى ما
هى ؟ وعاء كروى من الفخار له فوهة ضيقة طويلة يوضع البن

فيه بعد ان يدق حتى يتكسر ويغلى بعد ذلك فى الماء ثم تغطى فوهة الجبنه بقطعة من ليف النخل كى تحجب البن المدقوق كما تحجبه مصفاة الفضة او المعدن حين يصفى الماء . وهذه هى قهوة اهل السودان ! أرأيت .. هى اذن كقهوة الاوربيين سواء بسواء لا فرق بينهما الا فى الاناء التى تصنع فيه . واذن فقد تتفق ارقى صور الحضارة مع ابسط صور البداوة ثم لا يكون بينهما فرق الا فى الصورة والمظهر . ويكون هذا المظهر وحده هو الذى يخول لاصحابه حق حكم الاخرين والتحدث عليهم .

وقمت وصاحبى ارود عاصمة الدراويش لارى بلدا سودانيا بالفعل . ما اكبر الفرق بينها وبين الخرطوم ! .. ان بها لازقة ضيقة تنفر الخرطوم وشوارعها الواسعة من ضيقها ، وان بها من الصناعات الوطنية البسيطة ما لا يتفق ومظاهر النظام الانكليزى . وكل ما استحدث فيها من اسواق كبيرة ومن بعض شوارع وطرق واسعة لم يغير سحنتها كمدينة سودانيه . انظر الى الزقاق الضيق المسقوف بألواح من الخشب والذى يعيد الى ذهنك منظر الخيمية والفحامين بالقاهرة .. هذا هو مقام صناع المراكيب السودانية . وصناع المراكيب السودانية لا يستوردون الجلد مدبوغا ولا يلجأون فى دباغته الى احدث الوسائل العلمية ، بل هم يكتفون اكثر الامر بالقائه فى الشمس حتى يجففه لظاها . ومن الجلد الذى لم يجف بعد ماهو ملقى امام دكاكين أهل هذه الصناعة . وانظر الى ذلك الشارع الكبير عنوان المدينة . اليس يحيى ذكرى شارع النحاسين فى اواخر القرن الماضى فهؤلاء العطارون قد برزت دكاكينهم فى الشارع وجلس كل واحد منهم فى هيبة ووقار كأنما هو قاضى الشريعة . وهذا دكان جوهرى ما تكاد ترى فيه جوهرة واحدة وان رايت بعض آنية دقيقة وصاحبه فيه جالس وكانه احد يهود الصاغة . ثم قف الان قليلا فمتع ناظريك بصناعة وطنية تجذب السائحين من الافرنج وغير الافرنج اليها . هذه صناعة العاج . فهذا سن فيل قد جوف ورسمت فيه فيلة



وكان جـواب العجـوز الذى اهتز السـودان من اعماله .
لم يعودوا يجيئوننى الا بتسـعين بلحـة !

تصغر واحدا بعد الاخر كلما قربت من ناحية السن الدقيقة.
وهذه زخارف ظريفة من العاج مموهة بالذهب او بالفضة .
لكن هذه الصناعة الوطنية الظريفة الثمينة ما تزال متأخرة
عن مثلها فى مصر تأخرا كثيرا . وما تزال توضع فى دكاكين
لا سبيل لمقارنتها بمثل متاجر الخرطوم . دعك الى جانب هذا
من كثيرمن مظاهر البؤس والفاقة مماجئنا على وصف بعض منه
عند اسواق الخرطوم وعندمخازن حبوب سكة الحديد ..
مع هذا كله فام درمان مدينة لهاحياة المدنية . وفى هذه الازقة
والطرق والشوارع معابد تحدث عن اجيال واجيال. ولهذه المبانى
القديمة الغير المنتظمة تاريخ ،عدم انتظامها اول شاهد عليه .
كلا ! ليست ام درمان عزبة أومزرعة لمالك خططها كما شاء له
هواه ، ولكنها قدس لقبور كدست فوق قبور . وهل فى
غير القبور حياة وحضارة ؟ بل انك لترى نفسك وانت امام
فضاء عظيم فيها لا يفصل بينه وبين الطريق الا حاجز منخفض
من بناء ، قد شعرت بشىء من الجلال يملأ نفسك ومن الهيبة
تفيض بها جوانحك . ذلك حين تقف امام جامع المهدى حيث
يوجد أثر قبره . فهذا الجامع ليس كغيره من المساجد . ليس
كمسجد الخرطوم ومسجد ام درمان وأمثالهما مما ترى فى بلاد
المسلمين طرا . بل هو فضاء منبطح ما تكاد تحيط العين به فى
نظرة لعظيم سعته ، وليس بينه وبين الطريق الا اسوار بلغ من
قلة ارتفاعها انها لا تحجب ارض الفضاء الذى تحيط به عن عين
الواقف على مقربة منها . لكنه جامع المهدى . وبحسبك ان
يذكر هذا الاسم حتى يمتلىء هذا الفضاء امامك بالصور والمعانى
وحتى ترى بعين بصيرتك جيلا كاملا من اهل هذه الاصقاع وقد
حشد فى هذا المكان وخر ساعة الصلاة ساجدا مؤمنا بان امامه
ومالكه رسول الله أو خليفة رسوله او هو الذى تجسد
لهدى الناس وخلاصهم . اجل .. ففى هذا الفضاء جمع
المهدى اهل السودان جميعا جيلا بل اجيالا . وفى أم درمان كانت
مئات الالوف مما زاد على المليون وعلى المليونين احيانا ، وكلهم
يؤمن بالمهدى ويرى فيه روح القدس . وما يزال هذا الفضاء

فضاء كما كان . ولئن دنسته اقدام لا تؤمن قلوب اربابها بقداسة المهدى مثل ذلك الايمان القديم فالشمس التى طلعت على المهدى وعباده ما تزال تطلع فتبعث من اشعتها ما يحيى امام الخيال كل هذا المنظر القوى الحى منظر المؤمنين اشد الايمان المتعصبين اشد التعصب ، يحيطون بمعبودهم يجلونه ويقدسونه

على ان رجلا من الذين عمروا هذا الفضاء ايام كان يدوى باسم المهدى وكان له فيه يومئذ شان يذكر ما يزال حيا يرزق . ذلك هو عثمان دقنه . فقد كان هذا الرجل قائدا ينشر دعوة المهدى فى شرق السودان بينما كان المهدى ما يزال فى الابيض وما تزال دراويشه بعيدة عن الخرطوم وعن ام درمان . فلما استتب له الامر بعدما اضطر المصريون بمشورة الانكليز الى التخلى عن السودان كان عثمان دقنه فى طلائع قواته وقواده . ولما اعيد فتح السودان بقيادة السردار كتشنر بعد ثلاثة عشر عاما من وفاة المهدى قبض على عثمان دقنه اذ كان أمره قد استفحل وشوكته قد قويت . وظل هذا الرجل فى السجن وكانت حكومة السودان قد اذنت له فى اداء فريضة الحج فسافر مع شاب من اقربائه يريد بيت الله الحرام راجيا ان يقضى بمكة ما بقى من ايامه . فلما نشبت الحرب بين سلطان نجد وملك الحجاز عاد ادراجه الى السودان وردته الحكومة فيه الى معتقله . وهو قد بلغ اليوم من الكبر عتيا . وانك لتشفق على رجل مثله تحدرت به الشيخوخة الى احلام الطفولة من جديد حين تسمع ما كان من قصته مع السردار ستاك باشا حين زاره عام ١٩٢٤ ، فلما سأله عن شانه وما يمكن ان يشكو منه وما يمكن ان يشتهى كان جواب العجوز المتهدم الذى اهتز السودان من اعماله واعمال رجاله سنين تباعا : لست اشكو الا من شىء واحد . ذلك انهم كانوا يجيئوننى من بلح التمر كل يوم باربعين ومائة بلحة . اما الان فلم يعودوا يجيئوننى الا بتسعين . هذا كان كل همه وتلك كانت شكواه . وفى عد التمر الذى

يؤتى له به كل يوم كان يقضي وقته . وسال السردار فى هذا الامر الخطير فعلم انهم كانوا يجيئون له بتمر صغير ثم رأوا هذا التمر الكبير خيرا له . قال السردار اعيدوا اليه بلحاته الصغار كما كانت اربعين ومائة ولا تكلفوا عقله واعصابه كل هذا الاجهاد الذى شكا اليوم بسببه.

هذه البقية من عثمان دقنه ، هذا الطلل الذى يندب التمرات التسعين بعدما كان صاحبه فى الشباب لا يعرف غير البطش والثورة هو الان خافت كذلك الفضاء الصامت اليوم بعد ان كان اسم الله واسم المهدى يدويان فيه كل يوم دوى الرعد وبعد ان كان له ما للرعد من نذر السماء

فاذا انت جاوزت هذا الفضاء المتلىء بصور الماضى وسرت فى طريقك متجها الى وسط امدرمان رايت عن يمينك مسجد ام درمان الذى شيد كما شيد مسجد الخرطوم على طراز حديث ولما يشهد من عبر التاريخ ما يحدث به وهو ابن عصرك ومن عمارة اقرانك



وام درمان بلدة سودانية . صحيح انك ترى فيها بعض ماترى فى الخرطوم من متاجر للسوريين وللمصريين ولجماعة من الاوربيين لكن هذه المتاجر ليست قوام حياة ام درمان ، بينما هى قوام حياة الخرطوم . ثم انت ترى ابدا الى جانبها مظاهر نشاط السودانيين انفسهم . بل انت ترى على هذه المتاجر مسحة من معنى السودان لا تراها على متاجر عاصمة السودان . فاذا اوغلت قليلا فى قلب البلد رايت الحياة السودانية بكل معانيها . ورايت شيئا عجبا . فالسودانيون فى هذه الحياة السودانية ليسوا كامثالهم فى جو الخرطوم . فقراء الخرطوم من السودانيين تبدو عليهم وحشة الفاقة والمها وبؤسها اما فقراء ام درمان فلا يأبون ابتسامة للحياة تسفر عن اسنانهم البيضاء الناصعة . ولعل السر فى ذلك ان هؤلاء يلتئمون مع جو بلادهم فليس

بينهم وبين ما حولهم من الناس والكائنات مثل ما بين اولئك وما ينعم به الحكام من اسباب الرغد والرفاهية . او لعله الشعور بالحرية ان ليس بينهم وبين الحكام من الروابط القريبة ما يجعلهم دائمى الاحساس بمراقبتهم اياهم مراقبة ضيقة . على كل حال فان السودانيين والسودانيات هنا اكثر مرحا واشد بالحياة اغتباطا . مررنا بسودانيات تبيع (الرهط) فوقف صاحبى يساومهن . والرهط لباس الفتيات يأتزرن به ما دمن ابكارا . وهو حزام من جلد يبلغ عرضه قيراطين او ثلاثة قراريط ، تتدلى منه خيوط رفيعة من الجلد ايضا وهى كثيرة كثيفة ، فاذا شدت الفتاة حزام الرهط على خصرها سترتها هذه الخيوط حتى ركبتها وليس يحضرنى للرهط شبه فيما تقع عليه عين أهل الحضارة الالباس بعض الراقصات فى الاوبرا وغيرها من المسارح الكبرى . غير أن بينه وبين لباس الراقصة ما بين (الجبنة) واناء القهوة الفرنسية من فرق . فاذا تزوجت البكر السودانية خلعت الرهط واتزرت بالقماش مكانه .

وقف صاحبى يساوم بائعات الرهط ويسائلهن ما بال هذا الرهط أحمر مصبوغ وذلك الآخر على لونه الطبيعى ؟ فابتسمت الفقيرة السودانية ابتسامة قانعة وجاهدت لتفهمنا واجتهدنا لنفهم أن هذا المصبوغ احط فى صنف جلده من الآخر وهو لذلك اقل منه ثمنا . ولتزيدنا اقتناعا تناولت من تحت مقعدها جلدين احدهما أرق من الآخر حالا وهو الذى يصبغ لتوارى الصباغة سوآته ثم أمسكت بيمناها نصلا لسكين قديم ولفت بعض الجلد على ابهام قدمها وشدته اليها بيسرى يديها وأرادت أن ترينا كيف تصنع خيوط الرهط المتدلية من حزامه . كل ذلك من غير أن تفارق شفتيها ابتسامته الناطقة بالطمأنينة لشظف العيش بل لبؤس الحياه .

قال صاحب من السوريين المقيمين فى أم درمان كان معنا : ليت الحظ يتيح لكم أن تشهدوا حفل زواج هنا . كنتم فيه ترون صورة ظريفة من صور الحياة السودانية . وكنتم تدهشون مما فيه من شبه بالحفلات الاوربيه مع اسراف فى التقدم والتبريز على

الاوربيين ففى هذا الحفل يجتمع بنات الطبقة التى منها العروس فيرقصن ويغنين . ثم يتقدم الخطيب الى عروسه يراقصها وهى اذ ذاك عارية لا يسترها الا هذا الرهط الذى ترون . فاذا تم دور الرقص امسك بيده سبعا من خيوط الرهط فجذبها جذبة واحدة . فان اقتلعها فهذا الرجل الذى تفخر به عروسه . أما أن عجز عن اقتلاعها فله ولها العار والخجل . وكثيرا مايترتب على العجز من جانبه فسخ الزواج .

قال صاحبى الذى جاء واياى من الخرطوم :

– وما نزع خيوط الرهط الى جانب تزاوج شبان حمر الهنود ؟ فلست أذكر أين قرأت عنهم أن الشبان الذين يريدون الزواج يحضرون الى حلقة تقف حولها بنات القبيلة ثم يتقدم كل شاب الى من ينزع ماحول أحد ضلوعه من اللحم وتمر حول الضلع حلقة من حديد يشد اليها حبل متين يربط بعد ذلك الى شجرة أو نحوها . وبعد ذلك يتراجع الفتى للوراء بكل قوته حتى ينكسر ضلعه وتخرج من صدره حلقة الحديد وأى الشبان كان أكثر احتمالا للألم حتى تمام هذه العملية القاسية فله أن يختار من بنات القبيلة من شاء . أما هنا فما أحسب جذب خيوط الرهط السبع وانتزاعها الا ايذانا بأن أيام الرهط انتهت وآن للفتاة أن تكون امرأة .

ثم تابع السورى المقيم بأم درمان حديثه :

– لعلك لم تعد الحق فى شىء . فقد سمعت ان الفتيات كثيرا مايحززن الخيوط السبع قبل رقصة العرس حتى لا تستعصى على الخطيب فلا يكون انتزاعه اياها الا وسيلة اعلان انخراط عرسه فى سلك النساء وخروجها من سلك البنات .

* * *

وتركنا السوق وصانعات الرهط وبائعاته وعدنا أدراجنا لتناول طعام الغداء عند تاجر سورى ظريف دعانا الى بيته . وبيت هذا التاجر مثل غيره من بيوت السودان صنع من اللبن أو من « الجالوس » وجعلت نوافذه على الجهتين البحرية والقبلية لتغير الهواء الصحى فى السودان اذ يكون شماليا أحيانا وجنوبيا أحيانا



آه لو سعدت بمشاهدة حفلة عرس سوداني

اخرى . وبه فضاء غرس صاحبه فيه بعض الاشجار والزهور لتكون للعين بهجة وحين القيظ ظلا يتقى الانسان به لافح الهجير . وكان الى جانب هذه «الجنينة» الظريفة فضاء آخر متسع خصص لتربية الديكة الرومية وجدنا به حوالى الخمسين أو الستين منها حين درنا نرى البيت ومشتملاته .

ويعيش هذا التاجر فى سعة من النعمة وينهل من صنوف المتاع المختلفة بما يرفه عنه الوحدة ويهون عليه العيش فى بلاد نائية يبتغى الثروة كى يعود بها الى أهله ومسقط رأسه فيكون فيه موضع الاعزاز والاكرام . فعنده « فونوغراف » لطيف جمع له من مختلف « الاسطوانات » أشكالا وألوانا ، وفى ركابه نجار سورى يقيم بأم درمان هو الآخر ويتقن اللعب على الكمنجة اتقانا حسنا وكان معنا بين الذين دعوا الى الغداء سورى آخر جميل الصوت وانتظمت الحلقة وبلغت من البهجة أن نسى الانسان أين هو وان خيل اليه أنا فى احدى بلاد سويسرا نتمتع من بديع جمال الطبيعة بخير ما يستمتع به الحس الظمىء الى معانى الجمال . فلما بدأت موليات النهار تولى ذكرنا أنا مدعوون الى طعام العشاء عند احد معارفنا بالخرطوم فشكرنا صاحب الدعوة وسرنا حتى محطة الترام الذى أقلنا الى الباخرة فالى المقرن فالى دار صاحبنا

وترك هذا اليوم الذى قضيته بأم درمان فى نفسى أحسن الاثر . فقد رأيت مدينة سودانية حقا . ورأيت حياة سودانية يشعر اصحابها انهم فى بلدهم وان الغريب عنهم نازل عندهم وانه فى حمايتهم وهم ليسوا فى حمايته شأن السودانيين المقيمين بالخرطوم . وهذه الحياة السودانية فى أم درمان هى التى قضت على ما كان من محاولات للقضاء عليها كمدينة ولجعل الخرطوم كل شىء . بل ان من الناس من يعتقد أن الجسر الذى أنشىء الآن بين الخرطوم وام درمان سيزيد عمارة هذه المدينة وسيعيد اليها كثيرا من سلطانها أيام كانت عاصمة الدراويش . وما اظن واحدا من السودانيين الا يغتبط لهذا ويسر به . بل أحسب أن الذين شعروا حين مقامهم فى السودان بانعطاف قلوبهم نحوه ليشعرون هذا الشعور وليحفظون من ام درمان لا من الخرطوم ذكر السودان الصحيح

حفلة افتتاح خزان سنار

الاربعاء ٢٠ يناير سنة ١٩٢٦ الساعة الثامنة والدقيقة الأربعون مساء : القيام بالقطار المخصوص من الخرطوم الى مكوار لافتتاح خزان سنار رسميا

الخميس ٢١ يناير سنة ١٩٢٦ منتصف الساعة التاسعة صباحا : الوصول الى مكوار والى خزان سنار

الساعة الحادية عشرة صباحا حفلة الافتتاح

الساعة الرابعة بعد الظهر . مشاهدة وابورات الحليج ببركات

الجمعة ٢٢ يناير سنة ١٩٢٦ الساعة السابعة صباحا : الوصول الى الخرطوم عائدين بعد الحفلة

هذه هى مواعيد السفر للحفلة الرسمية التى سافرنا جميعا من مصر وسافر بعضنا من لندرة الى الخرطوم لحضورها . ولقد وزعت علينا منذ وصولنا الى الخرطوم كراسة فيها هذه المواعيد وغيرها مما تقتضيه تفاصيل الحفلة كما احتوت على سائر مواعيد حركاتنا بالخرطوم

واذ كنا ضيوف معالى حاكم السودان العام فقد عنيت حكومة السودان اثناء الرحلة كلها براحتنا . لكنها كانت أشد عناية اثناء السفر من الخرطوم الى سنار والعودة من سنار الى الخرطوم . فأرسلت الينا فى منتصف الساعة الثامنة من مساء الاربعاء ٢٠ يناير عربات كبيرة تنقل أمتعتنا كما ارسلت سيارات فى الساعة الثامنة والربع كى نستقلها الى المحطة.

وما كدنا نصلها فى هذه الساعة التى أرخى فيها الليل سدوله على الوجود حتى الفينا جمعاً كبيراً من الرجال والنساء لا يتيسر تمييزه فى هذا الوقت . فلما آذن للقطار ان يتحرك فى الساعة الثامنة والدقيقة الاربعين ارتفعت اصوات هذا الجمع الحافل بزغاريد النساء وبشىء يشبه الهتاف من الرجال . واستمرت هذه الزغاريد زمناً طويلا كان القطار يسير فى أثنائها الهوينا مستديرا الى الشرق كى يحاذى النيل الازرق ويتبع شاطئه حتى يصل الى سنار

هذه الجموع الحافلة وهاتيك النساء المزغردة لا تعرف جمهرتها الكبرى شيئا من أمر خزان سنار . وربما اعتقد كثيرون ممن عرفوا عنه شيئا انه شر لهم لانه يحجز الماء فيما وراء ذلك البلد النائى حجزا يحول دون فيضان النيل الازرق على حياض اراضيهم كما كان يفيض من قبل فيدع لهم الفرصة التى يزرعون فيها الذرة . لكن هؤلاء الرجال حشدوا لان حكومة السودان أرادت أن يحشدوا وهاتيك النساء زغردن لان حكومة السودان ارادت ان يزغردن . وهم جميعا واجبة عليهم طاعة أولى الامر . ولهم فى أهل مصر أسوة حسنة اذ يحشدون لغاية ولغير غاية فى مواطن كثيرة حسب ماتملى به أهواء الحكام وشهوات السياسة

وانطلق القطار يسرى فى دجى الليل ويخترق الظلمات وينهب الارض . وبتنا جماعة الصحفيين فى شغل بتلاوة الخطب التى وزعت علينا والتى اعدت ليلقيها لورد جورج مندوب انكلترا السامى وسر جوفرى أرشر حاكم السودان العام واسماعيل سرى باشا وزير الاشغال بمصر فى حفلة الغد . واضطررت انا لنقل خطاب حاكم السودان الى العربية اثناء سفر القطار لانه لم يكن قد ترجم . فلما أتممته جعل مكاتب التيمس يسألنى رأيى فيما حوته هذه الخطب وهو معجب بها ولها محبذ .

وقمت الى مرقدى قبيل منتصف الليل فلما ايقظنا الخادم لتناول شاى الصباح كان النور قد انتشر فى الارجاء وتبدت

من الجانبين سهول غامرة ظلت تحاذينا حتى وصلنا محطة سنار قبل الساعة السابعة . ثم تحرك القطار منها بطيئا الى مكوار على مقربة من الخزان والى جانب المكان الذى تقام فيه الحفلة الرسمية .

ماذا أرى ؟!! ... ماهذه الالوف المؤلفة من خلق الله اهل السودان ؟ وما هذه الطبول والزمور وما هذه الزغاريد تشق عنان الجو وما هذا العيد الذى لبس فيه أولئك السود الابيض الجديد ؟ وما هذه الاعلام المصرية والبريطانية يلعب بها نسيم الصبح العليل ؟ ما أظن اكبر مدن أية دولة من دول الحلفاء كنت مائجة بالناس يوم وضعت الحرب الكبرى أوزارها موج هذه البقعة المحيطة بترعة الجزيرة وخزانها ؟ .. أفحق ان أولئك كلهم جاءوا بباعث من نشوة الجذل والطرب يسعدون برؤية الماء ينزل فى ترعة الجزيرة ؟ ام انهم حشروا اليه كما حشر المزغردات والهاتفون فى الخرطوم ؟ وكما يحشر الناس فى مصر زمرا للقيا كبير أو لتحية أمير .

قلت لاحد كبار الحكام فى حكومة السودان : انكم لاشد من حكومة مصر مهارة فى حشد الناس وحشرهم وابرع تمثيلا لما تريدون ان يكون احساسهم وشعورهم

قال وعلى ثغره ابتسامة جمعت الى التهكم الانتصار : لكننا لانحشرهم الا لمناسبة عظيمة كهذه المناسبة . أما فى مصر فما اكثر ما يحشرون .

وقف القطار اذن عند مكان الحفلة فكان هذا المكان الى يساره . وكان خزان ترعة الجزيرة امامه ، وقد امتدت عليه وعلى الخزان كله قضب السكة الحديد التى ينتظر ان تمتد بعد ذلك الى كسلا . وكان مقررا ان يقوم القطار بنا فيتخطى الخزان كله وعرضه ثلاثة كيلومترات . لكنه كان يقوم بعد انتهاء الحفلة . لذلك فضلت ان اسير ولو الى منتصف الخزان راجلا كى احيط بشىء من امره خبرا . وأول ماتوسطت خزان

ترعة الجزيرة رايت هذه الجموع التى ترى فى الصورة على شاطىء الترعة الايمن والايسر وقد اعتلى عدد كبير منها تلك الاكمة الظاهرة . فما كنت ترى الاملابس بيضاء ووجوها سودانية واقفة تحت الشمس فى صمت وسكون كانما انشقت ارض الاكمة عنها بعد ان كانت حبلى بها فبعثت خلقا جديدا .

وتخطيت ترعة الجزيرة فوق جسر الخزان وامعنت فى سيرى على الجسر فى امتداده عند الشاطىء الثانى للنيل الازرق . ويبلغ عرض خزان ترعة الجزيرة مائة متر وثمانية امتار ، يسير الجسر بعدها فوق ارض صلبة مدى اربعمائة وتسعة وثلاثين مترا ثم يمتد بعد ذلك فوق خزان احتياطى عرضه مائة وخمسون مترا ، يجىء بعدها خزان النيل الازرق نفسه وعرضه ستمائة متر وستة امتار يلتصق به خزان احتياطى ثان كالخزان الاول فى عرضه ، ويسير الجسر بعد ذلك فوق الارض الصلبة مائة وتسعة وثلاثين مترا اخرى .. وبذلك تصبح هذه الابعاد جميعا ثلاثة كيلو مترات وخمسة وعشرين مترا .

الى يمينك حين تخطيك الجسر من فوق ترعة الجزيرة الى تجاه شاطىء النيل الازرق الشرقى ترى خزان سنار حجز الماء عنه ذلك الجسر الذى تسير عليه فجعل منه بحيرة واسعة ما يكاد يحيط بكل جوانبها نظر الرائى . وكان الماء يومئذ أزرق زرقة العقيق وزرقة السماء وكان الجو صحوا صافيا . فلما ابتعدت عن ضجة الوف من حشروا الى شاطىء الترعة وبلغت من الجسر فوق مجرى النيل الازرق وهبت على نسمات الصباح الرقيق ارسلت بناظرى أستطلع شيئا من خبر هذه البحيرة المتسعة الى يمينى . فلما عجزت عن الاستطلاع رددت الطرف يسرة فاذا ترعة الجزيرة تنتظر افتتاح الخزان ليرتفع الماء فيها ، واذا النيل الازرق فيما وراء الخزان محصور فى ستمائة متر بينما تتهادى مياه الخزان فى ثلاثة آلاف وخمسة وعشرين مترا واذا الفرق بين ارتفاع مياه الخزان وانخفاض مياه النيل الازرق

ياخذ بالنظر فعلا ويدعو الى شيء غير قليل من التفكير فى هذا العمل الهندسى العظيم وآثاره فى السودان وما قد يكون له من رد فعل على المياه اللازمة لمصر

فى منتصف الخزان غرفة عليها لوحتان من نحاس نقش على واحدتهما تاريخ بناء الخزان وعلى الاخرى اسماء حكام السودان اثناء بنائه والمهندسين الذين تعاقبوا هذا البناء . وفوق هذه الغرفة رفع العلم المصرى

مقابل الغرفة صفت مقاعد كثيرة يستريح عندها المندوب السامى الذى جاء مع صحبه ليشهد الخزان ويسأل « المهندس المقيم » عما يريد ان يسأل عنه من المعلومات الخاصة بهذا البناء الفخيم . وقد لقينى المندوب والحاكم العام واصحابهما حين عودتى راجعا الى مكان الاحتفال . . وكان حتما ان اسرع بالعودة وانا راجل وهم مستقلون السيارات . وعدت فقابلت كثيرين من المصورين والصحفيين مسرعين بالعودة كذلك . فلما بلغت الى حيث كان القطار واقفا انحدرت يمنة حيث اقيمت مظلة للمدعوين ترفرف من حولها الاعلام المصرية ، وفى ظلها قامت صفوف مدرجة من المناضد الخشبية الطويلة ليجلس المدعوون عليها .

امام هذه المظلة وضعت منصة للخطابة ووضع فوق المنضدة بوق لتضخيم الصوت حتى تسمعه هذه الالوف المؤلفة جميعا . كما قامت فوق المنضدة يد فى شكل «امنمحعت» متصلة كهربائيا بفتحات الخزان حتى اذا ادارها المندوب السامى انفرج باب الخزان وجرى الماء منه فى ترعة الجزيرة .

وفى الساعة العاشرة عاد المندوب السامى والحاكم العام وقرينتاهما وجلسوا الى المنصة وجلس معهم معالى اسماعيل سرى باشا وزير الاشغال بالوزارة المصرية فى ذلك الحين . وجلس من ورائهم الشيخ محمد الطيب هاشم قاضى النيل الازرق الذى كلف بالقاء ترجمة الخطب من الانكليزية الى العربية

العودة إلى الخرطوم
عند محالج قطن السودان فى بركات

انتهت حفلة افتتاح خزان سنار التى دعينا لشهودها وان لنا ان نعود بالقطار نتناول فيه طعام الغداء وننزل منه عند بركات نشهد احد وابورات الحليج بها ونستمع الى الخطاب الثانى الذى يلقيه فخامة لورد لويد مندوب انكلترا السامى

واذ كانت هذه الحفلات كغيرها من الحفلات الرسمية اقرب الى ان تكون مظاهرات منها الى أى شىء آخر وكان خطاب لورد لويد يجب ان يتناول الحديث عن زراعة اراضى الجزيرة والقطن النامى بها والناتج منها ولم يكن لورد لويد قد حضر الى السودان من قبل أبدا ، فقد وجب أن يستقل فخامته وقرينته سيارات يصـــحبهم فيها رجال حكومة السودان ويطوفون واياهم بعض مزارع القطن لكى يكون حديث المندب السامى عن علم او عما يشبه العلم فى نظر المستمعين . لذلك استقل هو ومن كان فى صحبته سياراتهم على ان يمروا بالمزارع واستقللنا نحن القطار . والى الملتقى ببركات

ها نحن الان تشـهد اعيننا ضيوف الحاكم العام بحفلة افتتاح الخزان مجتمعـــين فى عربات القطار . لقـد جاءوا من مصر وانكلترا زمرا ولم ير بعضـهم بعضا فى اجتماع واحد . ولقد دعى كثير من اعيان الســودان لشهود الحفلة ممن رأينا فى يوم عيد الملك وممن لم نر فى ذلك اليوم . وقد قمنا من الخرطوم فى المساء بعد ما تناولنا طعام العشاء بفنادقها ، وشغلنا عند سير القطار بالهاتفين والمزغردات وذهب اكثرنا بعـــد ذلك الى

مخدعه ، ثم تناول الاكثرون طعام الافطار فى مخادعهم كذلك . لهذا لم يتسن لاحد ان يرى جميع زملائه فى الضيافة الا حين حفلة مكوار . لكـن الذين اجتمعوا لشهود الحفلة من موظفين وغير موظفين جعل التفرقة بين الضيوف وغيرهم عسيرا . فلما تحرك القطار وباعد بيننا وبين الالوف التى حشدت لتهتف للمحتفلين لم يبق الا نحن الضيوف وشعر كل واحد منا بما بينه وبين صاحبه من صلة الضيافة ، فكنت ترى كثيرا من الابتسامات تتبادل ومن التحيات تتهادى

ثم كانت فرصة اخرى لزيادة التعارف تلك فرصة تناول طعام الغداء فى عربة الاكل . فقد هرع الناس الى هنالك بعد سير القطار بدقائق ، واستبقوا يتخير كل منهم مكانا صالحا . ولم تعن حكومة السودان بتحديد الامكنة فى تلك العربة كما عنيت بتحديد مخادع النوم . فكان السابق صاحب الاختيار . وكان جماعة الاوربيين انكليزا وغير انكليز اسبق منا نحن الشرقيين الذين يرون فى الاسراع الى الطعام شيئا من التنافى مع الكرامة لما قد يكون فيه من دلالة على الشره . لذلك الفينا نصف العربة الاول امتلأ وبقى نصفها الثانى خاليا او يكاد . فتخيرنا فى هذا القسم الثانى اماكننا وجعلنا ننتظر من يجلس وايانا فيه بينا كان الخدم يقدمون الطعام لاهل القسم الاول . اين جيراننا وزملاؤنا فى الطعام .؟ اولئك اعيان السودان . وهم اشد تباطؤا الى الطعام وتظاهرا بعدم الاكتراث به لنفس السبب الذى جعلنا نتأخر عن زملائنا الاوربيين . لكن .. هاهم بدأوا يفدون واحدا بعد واحد . وهذا جانب الغرفة يكاد يمتلىء ...لكن ... أين السير السيد على الميرغنى باشا !. ابعثوا فى طلبه ..احفظوا له مكانه ... وذهب كبير من موظفى حكومة السودان يبحث عنه ثم جاء واياه على مهل فاجلسه على المائدة المقابلة لمائدتنا

واشار جليسى الى احد اعيان السودان وسألنى ان كنت اعرفه ، ثم اخبرنى انه انعم عليه بلقب «سير» يوم عيد الملك . وهو رجل طويل

القامة نحيف الجسم تبدو عليه مظاهر القوة والشـــدة . قال جليسى :

ـ « قد يدهشـــك ان تنعم حكومة صاحب الجلالة البريطانية على مثل هـــذا الرجل باللقب العظيم الـــذى انعمت عليه به والذى لم تنعم به فى مصر الا على رؤساء الوزارات . لـكنك تزول دهشتك اذا علمت ان فى أمرة هذا الرجـل الفى رجـل يتحركون باشـــارته ويدينون لطاعته . والانعام عليه يفيـــد ولاءه للحكومة وللتاج البريطانى ويقيده بهذا الولاء فعلا . واذن فهذا اللقب الذى لا يكلف حكومة الامبراطورية شيئا قد كفل لها ولاء الفى رجل كلهم عتاة شدادلا يعصون هذا الرجل ما امرهم ويفعلون ما يؤمرون

وكأنما شعر جماعة من اعيان السودان الذين جلسوا الى جانبنا انا نتحدث عنهم فنظروا الى ناحيتنا نظرات حذر وتأهب . ثم خاطبنا احدهم بلهجة عسر على ان افهمها . فرد عليه جليسى بعبارة لطيفـــة . وآليت ان لااتحدث عن هـؤلاء الناس اثناء الطعام بشىء حتى لا اثـــير مايدفعهم الى التأهب من جديد . بل لقد حاولت ان لا انظر اليهم كيف يتناولون الطعام مخافة ان يحسبوا انها نظرة نقد .

برغم هذا الحـذر والتأهب الذى دفعت به الى نفوس اعيان السودان احداث السياسة كنت تلمـــح فى وجوههم من علائـم الشهامة والكرم والمروءة مايذكرنا باجدادنا المصريين الذين لم يكونوا قد تأثروا بعد بالمدنية الغربية ولم تكن النظم الحاضرة قد دفعت الى نفوسهم ما ترى اليوم عند كثيرين من حرص على المـــادة وانغماس فى اسباب تحصيلها .بل كنت ترى اكثر من هذا . كنت تحس هؤلاء الاعيان يشعرون بشىء من الضيق لهذه التكاليف الرسمية . هم يغتبطون بماتنطق به من صلة بينهم وبين الحاكم . لكنها فى نفس الوقت لا تتفـق وطباعهم الصريحة التى لا تعرف القيود ، ولعل الكثيرين منهم فى ذلك مثلهم مثل شيخ عرب من اكارم المصريين توفى منـــذ زمن طويل كان يذهب الى التشريفة لمقـــابلة الخـديو مع ســائر الاعيان فى كل عيد من الاعياد .

وكان يتضايق غاية الضيق من الجبة والقفطان . فكان يذهب فى ملابسه العادية والتى تنم عن بساطته وكرمه وحبه الانسانية، والتى تتكون من زعبوط وحرام الى حانوت على مقربة من عابدين حيث يخلعها ويرتدى الملابس الرسمية مدى الساعة التى يدخل فيها قصر عابدين ويمثل فيها فى حضرة الامير . فاذا تمت هذه المهمة التى كان يغتبط بها اسرع الى حانوته فالقى ملابسه الرسمية ولبس زعبوطه وحرامه وعاد كما كان شيخ العرب الكريم السخى اليد الذى يريد ان لا يشعر فقير الى جانبه بالفقر ما دام يرى هذا المحسن اليه فى لباس بسيط كلباسه .

وانطلق القطار الى بركات فبلغها حوالى الرابعة بعد الظهر. ثم سار بعد ذلك على مهل الى وابور الحليج . ماهذه الجموع الحاشدة التى تزيد على جموع مكوار !! احسب ان حكومة السودان قد جندت من فى السودان جميعا لهذا اليوم . فهؤلاء لا شك يزيدون على خمسة عشر الف رجل . وهؤلاء لبسوا البياض . فلعله لهم او لعل الحكومة تتركه منحة منها ان كانت هى التى خلعته عليهم

نزلنا من القطار فى ساحة فسيحة يتسع جانبها البعيد عنا لهذه الالوف الحاشدة وفصل بيننا وبينها فضاء متسع وضعت فى ركن من اركانه اكياس القطن التى اتى بها للمحلج ، وقام وابور الحليج وبه ثمانون دولابا فى وسط الساحة ، وهذا الوابور واحد من أربعة يشتغل فى كل منها مائتان وخمسون عاملا . وسرنا تغمرنا شمس يناير الدافئة البديعة المنعشة حتى دخلنا بناء الوابور المقام من الصاج . اليس عجبا ان تمتد يد الحضارة لتقيم فى هذه النواحى البادية هذه الالات الضخمة العظيمة اتى بها من انكلترا على متون البحار قطعا وهذه هى تدور الان مكينات فخمة قوية تحلج مئات القناطير وتقدم لمئات السودانيين عملا كانوا فى غنى عنه بقناعتهم بعيش البداوة الهنى . لكن انكلترا يجب ان تتغذى بالقطن لينال عمالها واشرافها اكبر حظ يريدون نواله من المتاع بالحياة فيجب لذلك ان يخرج اهل السودان وغير اهل السودان على ما الفوا منذ مئات السنين وان

ينتجوا القطن وغير القطن كارهين لهذا المجهود اول قيامهم به . فاذا الفوه ، والفوا ما يدره عليهم من ربح وما يوفره لهم فى الحياة من نعيم استزادوا منه ماطاقوا الاستزادة . ثم تراهم بعد ذلك ولهم فى الحياة مثل ما لعمال الانكليز واترافهم من مطامع . يومئذ لا يكون مفر من احتكاك فتفاهم . وذلك شـأن النظام الفردى فى الاقتصاد، ذلك النظام البديع القائم على ان تعنى كل ذاتية ، سواء كانت فردا او هيئة او امة ، بمصلحتها . وان تنافس غيرها فى السعى لتحصيل هذه المصلحة فى خير ظروف ممكنة. فهو ينتهى دائما الى السـير بالانسانية فى سبيل التقـدم . وهو من غير شك الحركة الدافعة التى تصل ، عن غير شعور من القائمين بها الى هذه الغايـة الانسانية السامية. غاية تفـاهم الجميع لخير الجميع ولخير كل فرد او هيئة أو أمة يتكون منها هذا الجميع

درنا فى ارجاء وابور الحليج ثم خرجنا من باب غير الـذى دخلنا منه فاذا امام هذا الباب الثانى مصطبة كبيرة اقيمت عليها مظلة تحتها مائدة عليها معـظم للصوت ومن حولها مقاعد اعدت ليجلس عليها المندوب السـامى البريطانى وصحبه، وليقوم بالقاء خطابه ، ينوه فيه بأعمال الحضارة التى قامت بها بريطانيا فى السودان على هذه الالوف من السودانيـين الذين حشدوا له ، والذين لا يعرف أحدهم من الانـكليزية حرفا ولا واحد فى كل مائتين منهم أن يدرك - ان هو استطاع أن يسمع - مافى ترجمة هذا الخطاب الى العربية

وأعدت للصحافة مناضـد وضعت عليها أقـلام الرصـاص و(بلوكنوت) من ورق صقيـل كما مهدت للصحفيين من قبل كل وسائل العمل للاسراع فى ارسال رسائلهم البرقية الى أنحاء العالم المختلفة يذيعون فيها أخبار هذا الاحتفال البريطانى فى مناطق خط الاستواء ، بعمل من أعمال الحضارة العظيمة قامت به بريطانيا خدمة للحضارة فى العالم ، وان كانت خدمة تفيد أهل البلاد وتفيـد بريطانيا نفسها .

وبعد الساعة الرابعة بقليـل أقبل لورد لويد ومن معه عائدين



ولم يكن ذلك الامريكى يشعر بما يشعر به أهـل العـالم من
قـواعد السـلوك فى حركاتهم وملابسـهم

من زيارة مزارع القطن بالجزيرة فأحاطوا بالمنضدة تحت المظلة ، وألقى لورد لويد خطابا هذه ترجمته :

كان لى هذا الصباح كما تعلمون عظيم الاغتباط بافتتاح خزان سنار وتسجيل خطوة جديدة خطيرة لترقى السودان الاقتصادى ومنذ الاحتفال مررنا بقسم من الاراضى التى أخصبها الخزان ولاحظناها . ومن دواعى سرورى أن تتاح لى الان فرصة مقابلة من تقع عليهم التبعة الخطيرة . تبعة استغلال ما أنشىء الخزان له .

لايسع الزائر الذى يرى ماتم اليوم الا أن يقدر ما أنفق فى هذا المشروع من جهد وروية واقدام . فمنذ سنة ١٨٩٩ عرف السير وليم جارستين الذى عمل كثيرا لاهالى مصر والسودان مكنونات سهل الجزيرة . ومن ذلك الحين ظلت المسألة موضع البحث الدقيق . وأستطيع شخصيا أن أقدر هذا العمل قدره بعد ما كان من حظى فى أثناء عملى فى الهند أن أفتتح واشهد اكثر من واحد من مشروعات الرى الكبرى التى قصد بها هناك كما قصد بها هنا الى تحسين حظ المزارعين وزيادة ثروة البلاد .

تعرفون تاريخ المشروع ووقوفه فى أثناء الحرب والصعوبات الهندسية العظيمة التى وجب التغلب عليها قبل اتمامه كما نراه اليوم . والمسألة الان هى كيفية الاستفادة الصحيحة من الموارد التى أسبغها على أهالى السودان عظيم ما أنفق من جهد ومال . والجواب لا ريب عندى أن النجاح رهن باستمرار ونمو التعاون الذى قام المشروع على اساسه . فقد اكتتب الجمهور البريطانى بما لايقل من أحد عشر مليونا وربع مليون من الجنيهات ، وبررت الشركة من جانبها هذه الثقة بها بمباشرة الاعمال الزراعية وحفر الترع الصغرى ببعد نظر ومقدرة يقصر دونهما كل ثناء ، والقت درسا مدهشا بتدريب عدد عظيم من الزراع عند الطلمبات . وأهم الاشياء ان علاقاتها بالزراع عموما كانت علاقات عطف ومودة ولا سبيل للنجاح الصحيح مالم يقم على قاعدة هذا العطف

وبعد ان أثنى على المستر انستين قال :

لقد تغيرت حالة السودان كلها فى السبع والعشرين سنة

الاخيرة . فكانت البلاد قبل اعادة فتحها تزداد كل سنة انحطاطا بدلا من أن تتقدم ، وكانت حروب القبائل وما تجر من الوباء والقحط وسائر الشرور التى تلازم عدم الطمأنينة على النفس والمال تهلك الحرث والنسل ، لذلك انقلبت مساحات واسعة كانت قبل عامرة الى أراض غامرة واشتد الظلم والقسوة . ومن بينكم لا ريب من يذكر تلك الايام ومن عاش ليرى الشوك والسعدان ينقلبان مروجا خصبة ، والضغط والقسوة يحل محلهما العدل والسلام . وتشهد الاحصاءات الرسمية بزيادة عدد السكان منذئذ الى ثلاثة اضعافه ، واصبحت الثروة لا تقض مضجع صاحبها مخافة أن ينتزعها منه مستبد . والغنى والفقير يستطيعان السير آمنين حيث يشاءان ، وللقانون والنظام الحكم فى كل مكان . وفى السنة الاولى لاتمام الخزان زرع ثمانون الف فدان قطنا ، ومساحة عظيمة ذرة ينتظر أن تغل ثمانين الف أردب هذا العام ، وذلك كفيل بعدم جناية غرض مشروع الجزيرة الاول ، بزرع القطن لبيعه ، على حاجات الشعب لمؤونته كفالة تطمئن من يذكر قحط البلاد سنة ١٨٨٨ وما حاق بها من متاعب خطيرة سنة ١٩١٣ . ونقطة هامة تستحق التنويه هى كفالة حقوق الاهالى بقانون سنة ١٩٢١ . فهناك شركة بين الزراع والحكومة والشركة اشتراك وثيق فى المصالح يجعل كل طرف يسعى لانتاج احسن محصول واصحه

وختم جنابه الخطاب بتهنئة موظفى المديريات وشكر الحاكم العام والتنويه بفائدة المشروع لاهالى السودان وتجارة جميع الامم .

وكان يلوح على لورد لويد أثناء القائه هذا الخطاب انه متعب مجدود . فلم يكن فى مثل ما كان ساعة القاء خطاب الصباح من نشاط وهمة . وله العذر بعد هذا المجهود المضنى الذى قام به هو وقرينته والذى لا يعتبر شيئا الى جانبه ما قاما به من مصافحة اكثر من ثمانمائة مدعو فى حفلة « يوم الملك » عملا لمصلحة الامبراطورية العظيمة

وانصرفنا عائدين الى القطار ، وخفف عن هذه الالوف التى

حشدت نطاق النظام الحديدى الذى اوقفها فى اماكنها صفوفا كما توقف الجند . فاستفاد من ذلك بعض افرادها . كانوا يحدثوننا ايام الطفولة ان سليمان عليه السلام حبس الجن والزمهم بناء تدمر بالصفاح والعمد ، وانه ظل يرقبهم بنفسه فكان مجرد جلوسه عندهم كافيا لدابهم على العمل والجد فيه . ومات سليمان فى جلسته واسبل الموت عينيه ومع ذلك ظل الجن فى دابهم خيفة ان يكون اطباق النبى اجفانه لسنة اخذته فاذا شذوا عن امره انزل بهم الام العقاب . فلما مال جثمان سليمان وهوى الى الارض وايقن الجن موته انطلقوا فرحين اشد فرح بعود الحرية اليهم وجعلوا يعيشون حيث شاؤا وبما شاؤا . كان ذلك شان هؤلاء الذين خفف نطاق النظام عنهم . انطلقوا يعدون ملء سيقانهم ليملأوا هذا الفضاء الذى كان يفصل بيننا وبينهم حتى صاروا عقبة فى سبيل وصولنا الى القطار . فلما وصلنا اليه بعد جهد الفيناهم احاطوا به من كل جانب حتى تعذر الصعود اليه ، واضطررنا للالتجاء الى القائمين بامر النظام فى هذا المكان الذى تولاه هرج اى هرج . وعجز حماة النظام عن معاونتنا فشققنا لانفسنا الطريق بين هذه الجموع المائجة التى ظل لديها من الاحترام لنا ما توجبه عليها الشرقية المتسامحة من اكرام الضيف وحماية الغريب

فيم هذا الهرج والمرج ؟! ما هذا العجيج الذى تثيره هذه الخلائق المندفعة صوب القطار فى حماسة وجيشان ؟ ! . . صه ! ان لها من وراء اندفاعها لغرضا ساميا عظيما . انها تلتمس بركات صاحب البركات السيد على الميرغنى .

نعم ! فقد اقبل السيد الى عربته بالقطار فطار فى أثره مئات من السودانيين لا يقترب اليه منهم احد ولكنهم يتبركون بمواطىء قدمه ويطلبون اليه فى خشوع وابتهال كلمة الرضى والغفران . فلما صعدنا العربة رايتهم احاطوا بها وجعلوا يملسون بايديهم عليها يتملون من بركاتها ما يتملى به اولئك الذين يزورون الاولياء الصالحين فى مقابرهم . ولعلك ان تحدثت الى

احدهم فيما يفعل قال لك ان عربة القطار التى يحلها ولى صـــالح كالسيد المرغنى اكثر حياة وبركة من ضريح به رفات ولى كان من الصالحين . ولعله يقول لك ذلك فى ايمان ناســيا أن اولياء الله لاخوف عليهم ولاهم يحزنون ، وانهم بعد موتهم احياء عنــد ربهم يرزقون .

أشرت فى فصل « عيد الملك » الى ايمان اعيان السودان بالسيد على . هذا الايمان المرتسم على وجوههم البادى فى نظراتهـم المتجلى فى كل حركاتهـم حين اقبــالهم مسرعين فى خشـوع واجلال يقبلون يده وينظرون من طرف كسير نظرة كلهـا الايمان والاجلال ورجاء الرضى وحسن الدعاء . فأما ايمان عامة اهـل السودان بالسـيد فيفوق ذلك اضعافا مضاعفة ويتجلى فى صورة من التعبـد لاتبعـد كثيرا عن العبادة . رأيت بعينى جماعة منهم تقبل سلم عربة السكة الحديد لان قدم السيد وطئتها . وكنت تسمع هذا الجمع الحاشد حول العربة مبتهــلا اليه ان يكـون واسطة له عند الله فى المغفرة . ولو ان السيد امرهم فى سـبيل ذلك ما امرهم لما عصوا له امراولا خالفوا له كلمة . ولو انهم ظفروا من فضل رداء الســيد بخيط واحد لاقتتلوا عليه يريد كل ان يكون له أو أن يلمسه ان لم يستطع امتلاكه .

انظر ! هذا جن سـليمان فك عقاله . فهذه الالوف الحاشـدة تزحف نحو القطار زحفا . وهذه كلها تصطف على مقربة منه صفا صفا . وهؤلاء افراد اشـد من غيرهم حماسة فى ايمانهم يجاهدون ليشقوا لانفسهم الى عربة السيد طريقا . ولامنقذ لنا من هجومهم علينا الا ايمانهم بالسيد وفرط حرصهم على رضائه . ولامفـر لآذاننا من سماع عجيج دعواتهم الى ان ينطلق القطار فيخلفهـم وراءه .

انطلق القطــار ، فارتفعت الاصوات بالتهليــل والتكبير . افحسبت انهم جميعا وقفوا عند تهليلهم وتكبيرهم . كلا بل انطلق جماعة منهم يســابقون القطار محاذين عربة السيد وسـيقانهم

الدقيقة واعصابهم المتينة تجعل منهم من هو اعدى من السليك

انقطعت الضجة واخذ بالعادين الجهد وأبديت الى صاحبى الموظف الكبير بحكومة السودان عجبى لهذا الايمان . قال لاتعجب . فقد ذهبنا من نحو خمس عشرة سنة لافتتاح خط كسلا ومعنا السيد . وعلم أهل ذلك الاقليم بالامر فأحاطوا بالقطار اول دخوله اقليمهم لايخشون ان توردهم عرباته الحتف اثناء سيره ، بل تعلقوا به مناجين مهللين يلتمسون من السيد دعاءه وبركاته مما اضطر سائق القطار للسير الهوينا مخافة ان يذهب بهذه الارواح الصارخة . ودخلنا لذلك متأخرين عدة ساعات عن الموعد المضروب لدخول القطار واقامة الاحتفال

وقال آخر : ولو علمت ياسيدى انهم مايزالون اذا دخلوا الى داره بالخرطوم دخلوا الى البهو الذى هو فيه زحفا على ايديهم وسيقانهم وعيونهم ثابتة فى الارض لاترتفع له منهم نظرة لقدرت مكانة السيد العظيم وسلطانه الدينى . ثم لو علمت مع ذلك انه لايسخر هذا السلطان الدينى لدعوة سياسيه ولايطمع فى شيء الا ان يسود السلام بلاده لاكبرت من قدره فوق ما اكبرت ولعلمت انه اوتى من الله حكمه وفضلا عظيما

وامعن القطار فى انطلاقه وعدنا بعد تناول طعام العشاء الى مخادعنا . وانا لنعد عدتنا للنوم اذ بلغنا واد مدنى . فصعد الى القطار جماعه من الشبان المصريين الذين مايزالون مقيمين بالسودان وقصدوا الى مخدعى ، وبعد تبادل التحيه سألونى ان انزل معهم الى رصيف المحطة لنكون بعيدين عن الانظار والاسماع . وهذا بعض مظاهر الحذر الذى اشرت اليه من قبل . فمنذ قتل السيرلى ستاك فى القاهرة ورتبت انكلترا على قتله اخراج الجيش المصرى من السودان قامت حكومة السودان باحاطة المصريين المقيمين فى ربوعه برقابة شديدة مخافة ان يثيروا فى السودان روح التمرد والعصيان . على ان هؤلاء الشبان الذين احاطو بى فى واد مدنى كغيرهم من المصريين الكثيرين الذين قابلتهم كانوا اشد ميلا لاعتبار حركة سنة ١٩٢٤ حركة طائشة لاسباب عدة . ولعل أهم

هذه الاسباب فى نظرهم ماأتاه كثيرون من الضباط المصريين من تصرفات ادت الى عدم رضى السودانيين ويسرت نشر الدعوة ضد الحكم المصرى فى السودان ولست ادرى مبلغ ماورووا من الصحة . الا انهم كانوا يتهمون هؤلاء الضباط بأنهم لم يكونوا يعرفون الا شهواتهم وانهم كانوا يقضون النهار وطرفا من الليل فى استيفائها، سواء منها الطبيعى والشاذ وسواء منها المطعوم والمشروب . وقد يكون لبعض هذه التهم قوام والحكومه المصريه لم تعن بأن يكون نائبا عنها فى السودان رجل له مقام الوزير وسلطانه على المصريين الذين فى السودان على الاقل

كذلك كان من شكوى هؤلاء الشبان المصريين الذين تحدثوا الى فى واد مدنى ان بعض السودانيين الموجودين بمصر لايلقون من عطف المصريين عليهم مايلهج السنتهم بثناء يتردد فى مختلف جوانب السودان ويدل دلالة حقيقية على عواطف الاخوة الصادقة بين اجزاء هذا الشعب المتصل بأوثق الروابط وامتنها والمقيم على ضفاف النيل الذى يسبغ عليه الحياة ونعمتها

وتركت هؤلاء الشبان الذين ودعونى بحفاوة شكرتهم واشكرهم اليوم عليها وعدت الى مخدعى فى القطار . ثم عاد القطار الى انطلاقه فاوينا الى مضاجعنا وبقينا فيها نياما حتى استيقظنا فى الصباح على مقربه من الخرطوم . فأخذنا افطارنا وتهيأنا للعودة الى فنادقنا نأوى الليلتين الباقيتين على مغادرتنا ربوع السودان

خزان سنار
ومشروع رى الجزيرة

«خزان سنار» أصبح الان الاسم الرسمى لهذا الخزان القائم على النيل الازرق تحجز مياهه لرى أراضى الجزيرة الواقعة بين النيلين الابيض والازرق ، ولكن هذا الاسم لم يخلع عليه بصفة رسمية حاسمة الا فى حفلة افتتاحه . أما الى يومئذ فكان كثيرون يسمونه خزان مكوار باسم البلد الذى بنى عنده كما سمى خزان اصوان باسم اصوان . ويحكون عن تغيير الاسم من مكوار الى سنار حكاية طريفة أقصها هنا من غير أن أكفل صحتها . ذلك أن مكوار عائلة كبيرة فى هذه المنطقة من مناطق السودان استوطنت الجهة وأطلقت اسمها على البلد الذى استقرت به . ثم كان ان عدا الدهر على العائلة فتدهور حالها وذهب أحد أبنائها يلتمس معونة الحكومة على غدر القدر . ولما سئل عما قدم هو او أهله للحكومة من خدمة تبرر هذه المعونة قال : « يكفى اطلاق اسم عائلتنا على هذا العمل الهندسى العظيم الذى يخلد ذكر هذه الحكومة وذكر بريطانيا» فكان الجواب رفض المعونة وتغيير نسبة الخزان من القرية الواقع عندها الى مديرية سنار القائم خلالها

وخزان سنار واحد من أعمال الرى الكبرى التى يراد باقامتها ضبط مياه النيل . فما يزال القسم الاكبر منها يضيع فى البحر الابيض المتوسط مع امكان الانتفاع به لرى ملايين الافدنة القريبة من النيل والصالحة للزراعة لولا عدم وصول المياه لها ولم يشيد خزان سنار الا بعد أن قامت الحكومتان المصرية والسودانية

بعمل مباحث مستفيضة عنه وعن سائر مشروعات الرى الاخـرى وبعـد ما أجـريت تجارب كثيرة لمعرفة مبلغ صلاح أرض الجزيرة لزراعة القطن ذى التيلة الطويلة من نوع قطـن السـكلاريدس المصرى · فلما نجحت هـذه التجارب أقدمت حكومة السودان على انشاء الخزان الذى حضرنا حفلة افتتاحه

وكان السر وليـم جارستن مستشار وزارة الاشغال المصرية أول من لفت النظـر لامكان رى سهل الجـزيرة صناعيا فى سنة ١٨٩٩ ، وأيده فى تقرير قدمه سنة ١٩٠٤ للورد كرومر قنصل بريطانيا الجنرال فى مصر · والى ذلك الوقت كانت فكرة زراعـة القطن فى مساحات واسعة بأراضى الجزيرة لا تزيد على خيال لذيذ ينظر اليه الانكليز بعين الرجاء · ذلك أن زراعـة القطـن لم تكن غريبة عن تاريخ السودان · فقدروى المسيوبونسيه الذى زار سنار مع المبشر زافريوس دى بـرفان سنة ١٦٩٩ أنه وجـد بها مائة ألف من السكان رائجة تجارتهم فى تصدير القطن الى حد ان اتفق السلطان الازرق ــ وذلك هـو اللقب الذى كان يطلق على أمير هذه المنطقة الواقعة على النيـل الازرق ــ مع ملك الحبشة على ابقاء ضابط بالنيـابة عنـه فى شلجا عنـد حـدود الحبشـة لتحصـيل العـوائد على القطن الصـادر واقتسامهـا شطرين يأخذ كل امير منهما شـطرا . كـذلك روى بركار الـذى زار شـندى فى سنة ١٨١٤ ان أهم صادرات سـنار كان الدمور المصنوع من القطن ، كما روى أن مصانع القطن فى سنار وبجرمى هى التى كانت تمـون القسـم الاكبر من افـريقيا الشماليـة بالملابس . على ان هذه الصناعة انحطت فى السودان وتدهورت لقيام الصناعة الكبرى فى أوروبا ومزاحمتها الصناعة اليدوية فى الاسواق مزاحمة لم تقو هـذه الصناعة اليدوية على البقاء امامها طويلا . لذلك انقلب السـودان الى زراعة الحبوب واطلق على سهل الجزيرة انه مخزن حبوب السودان كافة . فلما استعادت الجنود المصرية السودان بعد ثورة المهـدى كانت زراعـة القطن

وصناعته قد تدهورت فيه . وأصبحت ضئيلة أشد الضآلة

ولما قدم السرجارستن تقريره عن امكان ضبط مياه النيل الازرق لرى الجزيرة بدأت حكومة السودان فى دسمبر سنة ١٩٠٤ بمساحة اراضى هذا السهل المترامى الاطراف التى انشئت لهذه المساحة قائمة بعملها حتى أتمت القسم الاعظم منه فى سنة ١٩١٢ . كذلك مدت الحكومة خطا حديديا مابين الخرطوم وسنار بدأت العمل فيه فى سنة ١٩٠٩ ووصلت به الى سنار فى سنة ١٩١٢ ثم اخترقت به ارض الجزيرة من جنوبها حتى وصل الى كوستى على شاطىء النيل والابيض اتجه الى بلدة الابيض . وفى الاثناء بدأت الحكومة تجربة زراعة القطن فأقامت فى سنة ١٩١١ محطة طلمبات عند بلدة الطيبة على الشاطىء الغربى للنيل الازرق وحفرت الترع التى تأخذ مياهها من محطة الطلمبات هذه لتغذى ثلاثة آلاف فدان زيدت بعد ذلك الى خمسة آلاف . وعهدت حكومة السودان فى القيام بهذه التجارب الى نقابة زراعة السودان لما كان لهذه النقابة من سابقه القيام بتجارب زراعة القطن بزبداب فى شمال الخرطوم . وبدأ نجاح تجربة الطيبة نجاحا باهرا فى سنة ١٩١٣ . فدعا هذا النجاح الى ضرورة التفكير فى أصلح طرق الاستغلال . وكان لورد كتشنر يومئذ قنصل بريطانيا الجنرال فى مصر . فتوسط فى الامر وأتم الاتفاق على أن تكون حكومة السودان مسئولة عن الترع الكبرى فى كل ناحية يزرع القطن فيها وان تكون نقابة زراعة السودان مسئولة عن الترع الصغرى وعن ادارة المشروع كله وامداد المزارعين بالاموال اللازمة لهم وان يقوم المزارعون بالعمل فى الاراضى وان يوزع محصول القطن الناتج من الزراعة بنسبة خمس وثلاثين فى المائة منه للحكومه وخمس وعشرين فى المائة للشركة والاربعون فى المائة الباقية تكون للمزارع كما تكون له سائر الحاصلات التى تنتجها الارض

فى هذه السنة عينها ، سنة ١٩١٣ ، وعلى أثر زيارة لورد كتشنر للسودان مع الفنيين فى الرى من رجال الحكومة المصرية

وبعد ان رفضت الحكومة المصرية ضمان القرض الذى اريد اصداره بمبلغ ثلاثة ملايين من الجنيهات لاقامة خزان سنار ونجاح مشروع رى الجزيرة ، فى هذه السنة اقر البرلمان البريطانى الحكومة الانكليزية على ضمان هذا القرض ، وعلى ذلك بدئت الاعمال التمهيدية لبناء الخزان فى سنة ١٩١٤ . لكنها اوقفت عندما شبت نيران الحرب الكبرى .

وقد رفضت الحكومة المصرية اذ ذاك ضمان هذا القرض لانها رأت الامل ضعيفا فى استرداد ما دفعته للسودان سدادا لعجز ميزانيته بما بلغ احد عشر مليونا من الجنيهات ، ولان السياسة الانكليزية كان ظاهرا ميلها الى استئثار انكلترا بالسودان بعد ان تكون مصر قدمت له من الاموال ما مكنه من الاستقلال ماليا عنها وربما كان للحكومة وللجمعية التشريعية عن ذلك من العذر ان الاموال التى دفعتها مصر للسودان فى السنوات المتعاقبة كانت ملايين عدة . وضمان مصر لقرض الجزيرة قد ينتهى بأن تدفعه مصر فتضاف هذه الملايين الى تلك لتعود فائدتها اخر الامر على انكلترا وحدها . غير أن طائفة من المصريين كان لهم رأي غير هذا الرأي . وكانوا يعتقدون ان كل عمل هندسى او مالى يربط مصر بالسودان يقوى حجة مصر فى السودان ويكون نقطة ارتكاز لاولوية مصر فى ان تمسك بيدها تصريف مياه النيل ويذهبون الى اكثر من هذا اذ يقولون ان حكومة السودان كانت على استعداد لان يشترك المصريون ملاكا ومزارعين فى استغلال سهل الجزيرة ولكنهم اظهروا اعراضا تاما عن هذا الاشتراك كما اظهرت الحكومة المصرية الرغبة كل الرغبة عن ان يكون لها فى استغلال السودان يد او رأي .

وربما كان هذا الذى يقال صحيحا . وربما كان مركز مصر فى السودان غير ما هو اليوم لو ان الحكومة المصرية ضمنت قرض الجزيرة الاول الذى زيد بعد انتهاء الحرب الاولى من ثلاثة ملايين الى ستة لارتفاع اسعار الخامات والاجور اللازمة لاتمام بناء الخزان . وربما

كان من الخير حقا لو ان المصريين ذهبوا لاستغلال هذا السهل المترامى الاطراف وحققوا بذلك تحقيقا فعليا حجتهم بان السودان هو المهجر الطبيعى لهم فلا سبيل لفصله عنهم . لكن هذا الذى تبدو صحته اليوم لم يكن واضحا مثل هذا الوضوح قبل الحرب حين كانت انكلترا صاحبة السلطان الفعلى المطلق فى مصر ، وحين كان المصريون فى شدة حذرهم من سلطانها فى السودان يخافون ان يتقدموا نحوه خطوة . لذلك كان لحكومته يومئذ ، اوبالاحرى كان للجمعية التشريعية التى رفضت ضمان الحكومة المصرية قرض الجزيرة ، العذر كل العذر عن هذا القرار

تنحت مصر اذن عن الاشتراك فى استغلال سهل الجزيرة فاقدمت انكلترا بتشجيع لورد كتشنر على الانفراد بهذا الاستغلال وأقر البرلمان البريطانى ضمان الحكومة الانكليزية قرض الجزيرة فبدىء بالاعمال التمهيدية لانشاء خزان سنار ، ثم استعرت نار الحرب فأوقفت هذه الاعمال . لكن ايقافها لم يمنع من الاستمرار فى قيام نقابة زراعة السودان باجراء تجارب جديدة خصوصا بعد ماتقرر أن تكون مساحة الاراضى التى يرويها خزان سنار ثلاثمائة الف فدان يزرع ثلثها قطنا فى كل عام . فأنشأت النقابة المذكورة فى أوائل سنة ١٩١٤ محطة طلمبات جديدة فى بركات لرى ستة آلاف فدان . ثم أنشأت بعد ذلك محطة أخرى لرى ١٩٥٠٠ فدان فى ناحية الحوش بدأت استغلالها منذ سنة ١٩٢١ ، ومحطة رابعة فى وادى النو لرى ثلاثين الف فدان بدأت استغلالها منذ سنة ١٩٢٢ وكان هذا الاستغلال على قاعدة زراعة الثلث قطنا والثلث ذرة ولوبية وترك الثلث الباقى بغير زرع . أى على قاعدة الدورة الثلاثية

ولم تكن غاية حكومة السودان ولا نقابة زراعة السودان من انشاء محطات الطلمبات هذه مجرد القيام بتجارب لزراعة القطن . فقد كانت تجربة الطيبة كافية منذ سنة ١٩١٣ . لكن زراعة القطن كانت قد اندثرت من السودان قبل ثورة المهدى بزمن غير قليل . والمصريون المدربون على زراعة القطن رفضوا الاشتراك فى

الاستغلال . وقد عطلت الحرب استمرار القيام بأعمال انشاء الخزان . فرأت الحكومة ورأت النقابة الاستفادة من هذا الظرف لتدريب أكبر عدد ممكن من المفتشين الانكليز ومن أهالى السودان ومن الوافدين عليه من النيجيريا وغير النيجيريا على القيام بهذه الزراعة ومراقبتها حتى أذاتم بناء الخزان وكانت الترع والقنوات فى الثلاثمائة الف فدان التى أعدت فى المشروع قد تم انشاؤها أمكن زرع ثلثها أو مايقرب من الثلث قطنا دفعة واحدة بمعرفة هؤلاء الانكليز المفتشين والاهالى المزارعين الذين تدربوا على زراعته . وقد أثبت الزمن بعد نظر الحكومة والنقابة فى هذا الشأن اذ أمكنت زراعة ثمانين الف فدان قطنا على أثر تمام بناء الخزان مباشرة فى شتاء سنة ١٩٢٥ — ١٩٢٦

* * *

أما هذه الثلاثمائة الف فدان التى تقرر منذ البداية أن يتكون منها مشروع رى الجزيرة فتمتد على الشاطىء الغربى للنيل الازرق مبتدئة عند قرية الحاج عبدالله على بعد سبعة وخمسين كيلو مترا الى شمالى مكوار حيث يقوم الخزان . (وقد نسى الناس فى السودان اسم قرية الحاج عبدالله وأصبحت هذه النقطة معروفة عند المهندسين باسم الكيلو سبعة وخمسين) . ثم تستمر فى امتدادها شمالا على محاذاة النهر وسكة الحديد مدى خمسة وثمانين كيلو مترا . ويختلف عرضها من الشرق الى الغرب بين أربعة عشر وخمسة وعشرين كيلو مترا . ويسير وامامك هذه الابعاد ان تتصور هذه القطعة من السهل المطمئن لاتقوم عليه ربوة من الربى ولاعقبة من العقبات محاذية النيل الازرق المخصب ، وان تتصور الى جانب ذلك أنها ليست الا جزءا من عشرة أجزاء من تلك الاراضى التى يمكن ريها بالمشروعات والتى تبلغ ثلاثة ملايين فدان من خمسة ملايين هى مجموع مساحة سهل الجزيرة . وان تتصور اخيرا ان هذه الثلاثمائة الف فدان تقررت سنة ١٩١٣ وها هى حكومة السودان ونقابة زراعة السودان تراها الآن غير كافية

بالحاجة الزراعية مع انها لم يبدأ بزرعها الا عام ١٩٢٥ - ١٩٢٦

وهذه الثلاثمائة ألف فدان ، كغيرها من أراضى سهل الجزيرة ، لم تكن ملكا لحكومة السودان وهى ليست الآن ملكا لها . بل هى فى ملك اهالى السودان الذين كانوا يزرعونها على المطر حبوبا جعلت الجزيرة - كما أسلفنا - مخزن حبوب السودان . وقد رأت الحكومة ان نظام مشروع الجزيرة لاينتج ثمراته اذا بقيت هذه الاراضى تحت يد ملاكها . ورأت من ناحية أخرى انه لابد لنجاح المشروع من ان تكون للاهالى مصلحة مادية فيه . فاستأجرت أراضى المشروع لمدة أربعين سنة بايجار سنوى عشرة قروش للفدان كما اشترت الاراضى اللازمة للترع الرئيسية وغير الترع الرئيسية من المنافع العامة بثمن جنيه واحد للفدان . ولما كانت مساحة هذه الاراضى قد حددت تحديدا دقيقا بمعرفة الهيئة التى نوهنا من قبل بذكرها والتى أتمت عملها فى سنة ١٩١٢ وسجلت أملاك الاهالى بأسمائهم فقد كانت المعاملة بينهم وبين الحكومة لاتثير نزاعا من هذه الجهة

على ان هؤلاء الاهالى الذين استأجرت الحكومة أراضيهم يجب ان يكون لهم الى جانب هذا الايجار الذى يبدو تافها ضئيلا متى استغلت الارض بزراعة القطن مصلحة أخرى تجعلهم لايتذمرون ولا يشعرون بان حيفا وقع عليهم . وقد حلت الحكومة والنقابة هذه المسألة بصورة تراها وتحكم على عدالتها بعد ان نصف لك كيف نظم ى الجزيره .

اصبحت الثلاثمائة الف فدان اذن فى حيازة الحكومة التى استأجرتها . وهذه الثلاثمائة الف فدان تحاذى ترعة الجزيره جبنا وتحيط بها حينا . وقد قسمت الحكومه والنقابة هذه المساحة الى تسع عشرة قطعة كل منها تبلغ نحو خمسة عشر الف فدان ثم قسمت كل قطعة مساحات مربعه . وتمر الترع الرئيسية الآخذة من ترعة الجزيره وبين كل واحدة وما

بعدها نحو ١٥٠٠ متر . ومن هذه الترع تروى الارض عن طريق فتحات منتظمة ادق نظام

وقد رات الحكومة ان قدرة المزارع فى الاستغلال الصالح لا يمكن ان تعدو العمل فى ثلاثين فدانا يزرع منها عشرة افدنة قطنا وعشرة ذرة ولوبية ويترك العشرة الباقية بغير زراعة . لذلك جعلت هذه الثلاثين فدانا وحدة ما يضع الرجل عليه يده فى اراضى الجزيرة . وملاك الارض الاصليون يفضلون على من سواهم فى الاستغلال . فكل مالك يضع يده على ثلاثين فدانا من ارضه . ولكى لا يشعر كبار الملاك بانهم غبنوا فى تاجيرهم اراضيهم للحكومة جعلت القاعدة ان يكون للمالك حق اقتراح الاشخاص الذين يستغلون سائر ما استأجرته الحكومة من ملكه . وهو غالب الاحيان يقترح من يتصلون به بصلة القربى . وما دامت تقارير المفتشين عن هؤلاء المزارعين صالحة فلا محل لاجلائهم عن الارض التى يستغلونها

أشرنا الى ان محطات الطلمبات هى التى قامت بالتجارب الاولى كما قامت بتدريب المزارعين على طرق الاستغلال وأدواته ، والتى استمرت كذلك الى ان تم بناء الخزان فى سنة ١٩٢٥ بعد ان بدأت الاعمال الاولى التمهيدية فيه فى سنة ١٩١٣ ، واشرنا كذلك الى ان هذه الاعمال اوقفت على اثر اعلان الحرب العالمية فى سنة ١٩١٤ . فلما انتهت الحرب عاد المسيو السندرينى الذى وكلت الحكومة اليه المشروع يباشر اعمال الانشاء . لكن ارتفاع الاسعار على اثر الحرب جعل المبالغ التى قدرت لاتمام البناء غير كافية . على انه استمر فى العمل لحساب الحكومة وباشر منه قسما غير قليل . وفى هذه الاثناء رات حكومة السودان ان خطة الانشاء على هذه الصورة ، صورة « الحساب الجارى » تبهظها بالنفقات . فلما قررت الحكومة البريطانية رفع قرض السودان الى ستة ملايين طرح اكمال بناء خزان سنار فى المناقصة ورسا على محلات بيرسون واولاده بلندن فبداوا العمل فيه منذ ابريل سنة ١٩٢١ ، وهم الذين

وسبقنا الى وصف الخزان حين تمر فوقه . وذكرنا ان طوله ومعه الحوائط الصماء يبلغ ٣٢٥٠ مترا مد عليها شريط سكة الحديد استعدادا لانشاء خط مكوار - كسلا . ونثبت الآن مذكرة فنيه عن خزان سنار وضعها الفى بك الذى كان مدير اعمال تفتيش رى مصر بالخرطوم وتكرم باطلاعنا عليها كما تكرم بايقافنا على ما طلبنا من المعلومات الخاصة بهذا المشروع وبمشروع جبل الاولياء . وان كان قد اعتذر عن الافضاء لنا بما راى ان وظيفته لا تسمح الافضاء به

فتحات السد - معمولة باتساع يسمح بمرور اكبر تصرف للنيل الازرق وزيادة وهو ١٥٠٠٠ مترمكعب فى الثانية والفتحات كالاتى : -

أولا - الفتحات السفلى وعددها ٨٠ وعرض كل واحدة ٢ متر وارتفاع ٤٠ و ٨ ومنسوب العتب ٢ و ٤٤ ويعمل عليها الموازنة ببوابات حديد تفتح بواسطة ونش بخارى .

ثانيا - الفتحات العليا وتسمى فتحات التخفيف وهى ٢ فوق الفتحات السفلى وعرض كل واحدة ٣ متر وارتفاعها ٢ متر وهذه الفتحات يعمل عليها الموازنة بواسطة اخشاب غما افقى وترفع بهلب باليد

ثالثا - يوجد بالجهة الشرقية من الفتحات المبينة عاليه ٢٠ فتحة عليا ومثلها فى الجهة الغربية - وعرض كل فتحة ٥ متر وارتفاعها ٢ متر - وعتب عموم الفتحات العليا على منسوب ٢ و ٤١٧ وتفتح وتقفل بواسطة أخشاب غما أفقى

سعة الخزان وملوه وتفريغه :

اولا - أعلا منسوب تصل اليه المياه أمام الخزان هو ٧ و ٤٢٠ ويخزن على هذا المنسوب ٦٣٦ مليون متر مكعب

ثانيا - فى أول يوليو من كل سنه يكون منسوب أمام الخزان على ٥ و ٤١٤ ويرتفع تدريجيا فى مدة خمسة عشر يوما الى ٢٠ و ٤١٧ لاعطاء مياه لرى القطن بالجزيره وتحفظ المياه على هذا المنسوب الى أول نوفمبر .

ثالثا - من أول نوفمبر الى ديسمبر يرتفع منسوب المياه

تدريجيا الى ٧ و٤٢٠ ويبقى على هذا المنسوب الى ١٨ يناير .

رابعا — من ١٨ يناير تأخذ الجزيرة كافة احتياجاتها من الماء المخزون أمام والتصرف الذى يكون فى النيل الازرق فى الروصيرص أى تصرف النهر الطبيعى يمر خلف الخزان كما هو لاحتياجات القطر المصرى لغاية أول يوليو حيث يتكرر الترتيب المبين عاليه .

ملحوظة — قد اتبع نظام خاص فى الحجز على الخزان منذ زمن لعدم اخذ مياه كثيرة فى يوليو يمكن أن يحصل منها ضرر للقطر المصرى وفى أول ديسمبر من هذا العام تم حفظ أمام الخزان على الدرجة المطلوبة وهى ٧ و٤٢٠

ترعة الجزيرة :

أولا — فم الترعة عبارة عن ١٤ فتحة عرض الواحدة ٣ متر وارتفاع ٥ متر والعتب على منسوب ١٠ و ٤١١ — من هذه الفتحات سبع مقفولة بالخرسانة المسلحة، وتعمل الموازنة بواسطة بوابات حديد ترفع بونش يدار بواسطة رجلين .

ثانيا — الترعة عرض قاعها ٢٦ مترا وارتفاع المياه بها ٣ر٤٥ متر وانحداره ٧ سنتى فى الكيلو وذلك كاف لرى المساحة الحالية وهى ٣٠٠٠٠٠ فدان ومسطاح الترعة يسمح بتوسيعها عند زيادة الزمام

ثالثا — أول قناطر حجز على الترعة عند كيلو ٥٧ ويتفرع أمامها خمس ترع ومصرف على النيل لتخفيف المياه بالترعة وعندها يبدأ الرى بالجزيرة وكل الرى بالراحة

رابعا — ثانى قناطر حجز عند كيلو ٧٧ وأمامها ثلاث ترع ومصرف على النيل للتخفيف ثم قناطر حجز أخرى عند كيلو ٩٩، ثم عند كيلو ١٤٤

الارض المقرر زراعتها بالجزيرة

وقد تم رى ثمانين الف فدان قطن و ٤٩٠٠٠ فدان ذرة وعشرة آلاف لوبيا والزراعة حالتها حسنة

والمقرر هو أن يزرع مائة الف قطنا ومثلها ذرة وبقولا وتترك مائة الف فدان بورا

السبع فتحات المقفولة بفم الترعة والمسطاح المتروك بالترعة يسمحان بزيادة الزمام الى مليون فدان

***

وقد طرأ على بعض مافى هذه المذكرة تعديلات فيما يتعلق بالتواريخ التى تبدأ فيها حاجة مصر لتصرف النهر الطبيعى نعرض اليها حين الكلام عن مشروعات ضبط النيل كافة . كما ان سعة الخزان بعد ملئه للمرة الاولى تبين أنها ٨٠٠ مليون متر مكعب . والمناسيب المذكورة فيها مذكورة بالمقارنة الى ارتفاع مياه البحر الابيض المتوسط . أما ماورد عن مسطاح الترعة وكونه يسمح بتوسيعها عند زيادة الزمام فذلك لان الخزان يتسع لخزن مياه تكفى زراعة نصف مليون فدان أى ضعف المساحة الحالية الا قليلا . والسبع الفتحات المقفلة بالخرصانة من فتحات ترعة الجزيرة يكفى لامدادها هذا المقدار بالمياه اللازمة له

ويحسن ان ننبه القارىء كى يسهل عليه ادراك حكمة تواريخ الملء والتفريغ الواردة فى هذه المذكرة الى ان زراعة القطن بالسودان تبدأ فى أواخر شهر يوليو وأوائل شهر اغسطس . فرفع مستوى الماء فى الخزان من ٤١٤ر٥ وهو الرقم الموازى لمنسوب الفيضان الطبيعى للنهر الى ٤١٧ر٢٠ فى النصف الثانى من شهر يوليو انما يقصد به الى تغذية ارض الجزيرة بمياه الراحة اللازمة لرى الارض وزرعها قطنا . ويبقى هذا المنسوب ثابتا الى شهر نوفمبر حين تخلو مياه النهر من الطمى ويمكن التخزين . وفى شهر نوفمبر يرفع منسوب التخزين فى سنار الى مستوى ٤٢٠ر٧ ويبقى الى ان تبدأ حاجات مصر للماء لزراعة القطن ولتغذية النهر . واذ كانت أولوية مصر امرا مقررا معترفا به من الجميع فقد وجب البدء فى تفريغ الخزان بحيث تأخذ أراضى الجزيرة كل حاجاتها منه ويبقى تصرف النهر الطبيعى وقفا على مصر . والواقع ان حاجة اراضى الجزيرة للماء تقل بعد شهر يناير الذى تبدأ فيه الجنية الاولى من جنيات

القطن وتنتهى فى شهر مارس فلا تبقى ثمة حاجة لغير مياه الشرب . وهذه يكفيها مامقداره تصرف عشرة أمتار فى الثانية .

فاذا كان شهر يوليو وابتدأت الحاجة الى المياه فى الجزيرة لزراعة القطن وابتدأ الفيضان بجعل رفع الماء فى الخزان غير ضار بحاجات مصر بدىء فى عملية رفع المياه فى الخزان من جديد

* * *

لكن مسطح ارض الجزيرة يبلغ ، كما سبق القول ، خمسة ملايين من الافدنة أو يزيد . والنية متجهة الى استغلال ثلاثة ملايين منها . فكيف السبيل الى هذا الاستغلال وخزان سنار لايكفى مايحجزه من المياه الالرى نصف مليون واحد ؟ أم ان مشروع الجزيرة مايزال واقفا فى ذهن اصحابه عند رى هذا النصف المليون الواحد من الافدنة ؟

لا هذا ولا ذاك . والفكرة الانكليزية متجهة كل الاتجاه الى رى ثلاثة ملايين من أفدنة الجزيرة واستغلالها لزراعة القطن الطويل التيلة . والوسيلة الى ذلك فى نظرهم ليست تعلية خزان سنار ولكن اقامة حجز على بحيرة تسانا فى جبال الحبشة لحجزماينزل فى هذه البحيرة من الامطار مما ينحدر أثناء الفيضان مع مياهها فى النيل الازرق ويذهب ضياعا فى البحر الابيض المتوسط . واذا كان خزان سنار الذى يتسع لحجز ٨٠٠ مليون من الامتار المكعبة يكفى لرى نصف مليون من الافدنة فمن الممكن حجز ثلاثة مليارات ونصف مليار على بحيرة تسانا ، ولهذه الغاية جرت مفاوضات جدية بين حكومة بريطانيا وحكومة الحبشة انتهت باقامة الخزان

والظاهر ان هذه الفكرة ، فكرة الحجز عند تسانا ، لم تكن متمكنة من نفوس الذين بدأوا مشروع رى الجزيرة فى سنة ١٩٠٤ وفى سنة ١٩١٢ . فقد روى لى أحد كبار الفنيين من رجال الرى ان حكومة الحبشة رضت قبل الحرب ان يدفع لها

ربع مليون من الجنيهات اذاأرادت مصر أو السودان اقامة حجز على تسانا ، فرفضت الحكومتان المصرية والبريطانية هذا العرض . أما اليوم فحكومة الحبشة تطلب هذا المبلغ جزية سنوية مقابل انتفاع من يريد الانتفاع باراضى هذه البحيرة

وقد يتساءل بعضهم : كيف تحجز المياه التى تسقط فى فصل الامطار فى بحيرة تسانا مع ان هذه البحيرة هى التى تغذى النيل الازرق أثناء الفيضان . وماء النيل الازرق فى هذه الفترة مشبع بالطمى فيجب ان تكون مياه تسانا مشبعة بالطمى كذلك . فاذا حجزت رسب الطمى فى قاعها فارتفع هذا القاع وبلغ من ارتفاعه على تطاول السنين ان تطمى كلها . وهذا تساؤل من لايعرف مصدر الطمى وطبيعة اراضى البحيرة المذكورة . فهى صخرية واقعة فى مرتفع جبلى . ومياه الامطار التى تنزل اليها تنزل اكثر صفاء من مياه النيل فى اى وقت من اوقات السنة . فأما الطمى فيتكون من اختلاط مياه الامطار بسفوح جبال الحبشة ومن انحدار الماء المشبع بتراب هذه السفوح الى مجرى النيل الازرق بعد خروجه من بحيرة تسانا . لذلك كان حجز هذه المياه فى هذه البحيرة منذ نزول الامطار فيها صالحا من الجهة الفنية غاية الصلاح وكانت خزانا طبيعيا بديعا لرى سهل الجزيرة ولترك ما يفيض من الماء ينحدر الى مصر

على ان الحكومة البريطانية كانت تتباطأ فى مفاوضاتها مع الحبشة بهذا الشأن بعد ما بدأ لمشروع الجزيرة وجه من الصعوبة لا يتعلق بالرى ولكن يتعلق بالافات التى اصابت زراعة القطن فيها . فقد كانت نتيجة زراعة القطن فى اول امره تفوق كل تصور ، اذ انتج الفدان من السكلاريدس اكثر من خمسة قناطير ونصف قنطار . لكن امراضا غير معروفة فى مصر وما تزال اسبابها الحقيقية غامضة سرعان ما اصابت النبات فأضعفت من متوسط محصول الفدان اضعافا جعل حكومة السودان والحكومة البريطانية تفكر ان فى الامر تفكيرا جديا . ونظرة فى الاحصاء الرسمى عن حاصل الفدان فى الاماكن

المختلفة والسنين المختلفة تقنع القارىء بأن الامر يستحق التفكير بالفعل : ـ

السنة	الطيبة	بركات	الحوش	وادى النو
١٩١١ ـ ١٢	٥و٣٢	ـ	ـ	ـ
١٩١٢ ـ ١٣	٥و٦٢		ـ	ـ
١٩١٣ ـ ١٤	٣و٨٠		ـ	ـ
١٩١٤ ـ ١٥	٣و١٠	٥و٣٩	ـ	ـ
١٩١٥ ـ ١٦	٣و١٠	٣و٤٨	ـ	ـ
١٩١٦ ـ ١٧	٣و٤٧	٣و٢٠	ـ	ـ
١٩١٧ ـ ١٨	٤و١٠	٢و٦٦	ـ	ـ
١٩١٨ ـ ١٩	٤و١٣	٣و٥٠	ـ	ـ
١٩١٩ ـ ٢٠	٥و٦٠	٤و٩٨	ـ	ـ
١٩٢٠ ـ ٢١	٣و٢٠	٣و٥٠	ـ	ـ
١٩٢١ ـ ٢٢	٣و٤٦	٣و٨٤	٤و٣٢	ـ
١٩٢٣ ـ ٢٤	٤و٩٠	٤و٠٠	٣و٤٠	ـ
١٩٢٣ ـ ٢٤	٢و٥٤	٢و٨٧	٢و٨٨	٢و ٨٨
١٩٢٤ ـ ٢٥	٢و٣٣٨	٢و٢٨٨	٢و٣٩٠	٢و٠٤٦

هذا الاحصاء صريح فى الدلالة على خطر الحالة وتطلبها العناية والبحث . لذلك قامت الجمعية الامبراطورية لزراعة القطن بالاشتراك مع نقابة زراعة السودان ومع حكومة السودان بوضع برنامج شامل للمباحث التى يجب أن تعمل لفحص أسباب هذه الامراض ووسائل علاجها . وتكونت بلندرة هيئة استشارية مثلت فيها هذه الجهات الثلاث ، وظيفتها فحص التقارير الزراعية الخاصة بمشروع الجزيرة وإسداء النصيحة فيما يجب القيام به من المباحث فى العام الذى يلى هذه التقارير

أما مزرعة مباحث الجزيرة الكائنة على مقربة من واد مدنى والممتدة على مساحة قدرها ثلاثمائة وخمسون فدانا فقد أمدت بما

يجب لبحث المسائل التى تحسن زراعة الجزيرة . فأقيمت المعامل ليعمل فيها علماء للنظر فيما يقتضيه البحث الكيمائى والنباتى ولاجراء التجارب الخاصة بانتقاء بذرة القطن التى يمكن أن تصلح فى أراضى الجزيرة من غير أن تصاب بما أصيبت البزرة القديمة به من الآفات .

وأكبر ظن الفنيين فى الوقت الحاضر أن هذه الآفات التى تفشت فى زراعة القطن سببها رطوبة الارض بعد ريها ريا صناعيا ، وأن هذه الرطوبة لم يقف أثرها عند توليد جراثيم لا تصيب الاظاهر شجرة القطن بل تولدت عنها جراثيم امتدت الى بذور القطن نفسه . على أن هذا مايزال فى حيز الظن الى أن تجلو المباحث العلمية الحقيقة

غير أن تباطؤ الحكومة البريطانية فى المفاوضات الخاصة بمشروع تسانا لم يثنها عن مطالبة الحكومة المصرية بزيادة الثلاثمائة الف فدان التى كانت تزرع فى الجزيرة الى اربعمائة وخمسين الفا . وقد بحث هذا الطلب بعد صدور الانذار البريطانى لمصر على أثر مقتل سير لى ستاك باشا فى القاهرة مما سنفصله فى الفصل القادم .

يوم فى جبل الأولياء
مشروعات الري الكبرى

كانت زيارة جبل الاوليـــاء ومشاهدة ما تم هناك من الاعمال لانشاء قنطرة الحجز التى أريد تشييدها لفـائدة الرى فى مصر خاصة ، من أول ما عنيت به منذ نزلت الخرطـــوم . وذلك بأن الحكومة المصرية كانت قررت هذا المشروع . وبأن الاعمـــال كانت سائرة فيه على مهل حقـاولكنها كانت مستمرة فى انتظار طرحه للمناقصة العـامة وتولى أحد البيوتات الهندسية الكبرى اقامته . ولم يقم أحد باعتراض جدى على هذه الاعمال واستمرارها منذ انتهت اللجنة الدولية التى بحثت الخلاف الذى كان حاصلا بشأن مقاييس مشروعات ضبط النيل بين السير وليم ولـككس والمستر كندى من ناحية والسير مردخ ماكدونالد من الناحيـــة الاخرى . فمن يوم حكمت هذه اللجنة بصحة نظرية الســـير ماكدونالد وابطلت ما تمسك به خصماه فى شأن المقـاييس التى أقام هو عليها حسابه وفى شأن توزيع المياه من طريق قنـــاطر الحجز بين مصر والســـــودان توزيعـــا لا يضر أولوية مصر التاريخية ـ من ذلك اليـــــوم استمرت الاعمال فى مكوار الى ان تمت اقامة خزان سـنار ، وأرادت الحكومة المصرية الاستمرار فى تشييد خزان جبل الاوليـــاء لولا أن الاموال التى قدرت من قبل الحرب لاقامة هذا الخزان وقدرها مليون من الجنيهات لم تصبح كافية بسبب الغلاء الذى عقب الحرب ، وان الحكومات المصرية التى كانت تتوالى فى ذلك الحين كانت فى وضع سياسى غير منتظم لم يمكنها من تقرير الاعتمـــادات اللازمة لانشاء خزان جبـــل الاولياء . فلما توالت الحكومات بعد اعلان مصر استـــقلالها لم

تستطع احداها الفصل فى الموضوع الى ان تولى معالى اسماعيل باشا سرى وزارة الاشغال منذ أواخر سنة ١٩٢٤ الى شهر مايو سنة ١٩٢٦ . واذ كان معاليه ممن عملوا فى تقرير مشروعات الرى ومن بينها جبل الاولياء فقد قررت الحكومة التى كان فيها الاعتمادات اللازمة للسير فى العمل .

والى ذلك الحين لم تكن فكرة اعمال خزان جبل الاولياء وتعلية خزان اسوان الحالى تعلية ثانية قد وجدت انصارا فى الحكم ولا كانت قد وجدت انصارا اقوياء خارج الحكم . لذلك كان طبيعيا ان اتمكن من الذهاب اليه صبيحة يوم الثلاثاء ١٩ يناير اذ كان برنامج حفلة افتتاح خزان سنار خاليا يومئذ . لكن اشتغال مواطنينا القائمين بامر جبل الاولياء باستقبال سرى باشا وزير الاشغال لم يجعل اجابة طلبى هذا ميسورة . فقضيت الثلاثاء بأم درمان وانتظرت الى يوم السبت الذى يلى وصولنا الى الخرطوم بعد حفلة سنار ، وفى هذا اليوم أعددت عدتى للذهاب مع مفتش رى جبل الاولياء محمد بك صبرى شهيب الذى تفضل بدعوتى كى اصحبه فى سيارته .

تقع قرية جبل الاولياء على بعد خمسة واربعين كيلو مترا الى جنوب الخرطوم على النيل الابيض . وقد اختيرت بعد ان اثبت جس قاع النهر ان القاع صخرى عندها فلا يحتاج الى نفقات جسيمة يجب انفاقها للوصول الى طبقة صخرية بعيدة عن القاع بعدا كبيرا . وكانت قد دارت بخاطر السير ولبم ولككس حوالى سنة ١٩٠٩ فكرة انشاء قنطرة الحجز على النهر بين الخرطوم وام درمان لتغنى فى الوقت نفسه عن اقامة جسر بين عاصمتى السودان . لكن هذه الفكرة اهملت لما كان يترتب على الحجز من اتساع مسطح المياه اتساعا يضر البلدين جميعا ضررا جسيما

كنت اود لو استطعت بدل الذهاب فى السيارة ان اركب السفينة التى يسافر فيها المهندسون من الخرطوم الى جبل الاولياء ، لكن قيامها فى منتصف الساعة السادسة صباحا



وكانت عربة القطار التى يحلها السيد الميرغنى أكثر حيـاة
وبركة من ضريح

وخشيتى عدم التبكير فى اليقظة عدلا بى عن هـذا الميل . فلما استيقظت فى الصباح الفيت الوقت مبكرا مما جعلنى أود لو وجدت الوسيلة لاخطار مواطنينا المسافرين على ظهر النهر . وزاد هذا الميل عندى ما كان من صحو السماء ودفء الجو وتغريد العصافير فوق اشجار الفندق . لكننى بعد قليل من التفكير وانا ما أزال فى سريرى ممتعا بما حولى من دواعى الكسل عدت ففضلت ان اتناول افطارى على مهل فى انتظار مجىء السيارة فى الساعة السابعة والنصف . وقبيل هذا الموعد كنت قد اتممت عدتى وغادرت الغرفة الى شرفة الفندق حيث انتظرت الى حين حلوله . ولم يحضر صبرى بك فنزلت الى الشارع الفخم المحاذى للنيل الازرق اسير فيه ذهابا وجيئة . ووصلت من مسيرتى الى حديقة الحيوانات فدخلت اليها وطفت ارجاءها وتمتعت فى هذا الوقت الظريف الرقيق هواؤه الهادئة شمسه بمناظر الغزال والنعام وما تزال هى الاخرى ناعمة بيقظة النهار وانطواء بساط الليل . واذا كانت الحديقة لا تبلغ ركنا من اركان حديقة القاهرة فقد خرجت منها بعد ربع ساعة . ويممت الفندق من جديد . واذ وصلت الى بابه كان صبرى بك قد دخل يسأل عنى فتبادلنا التحية وركبنا السيارة التى اخترقت بنا شوارع الخرطوم وتخطت الى فضاء كانه الصحراء

نعم كأنه الصحراء . ! فهو ليس صحراء كالتى قطعها القطار بين حلفا وابى حمد والتى لا تعرف من صور الحياة غير « التكلات » المنقطعة عند المحطات من نمرة ١ الى نمرة ١٠ لكنه مع ذلك رمال فسيحة ممتدة يقدم عليها الحين بعد الحين « ديم » به بعض تكلات تشهد ان الحياة به غير منقطعة كل الانقطاع وتغطيها شجيرات يدعونها « العشار » اشبه شىء فى اقعائها على الارض وفى قتام لون ورقها وفى صمتها الموحش لا يحييه طير ولا حشرة بتلك الشجيرات التى تقوم الى جانب كثير من مقابر الارياف . وفوق هذه الرمال

وبين تلك الشجيرات ظلت السيارات فى انطلاقها مسرعة وظللنا لا نرى انسا مدى ساعة ونصف الساعة . وحتى هذه « التكلات » القائمة فى بعض « الديم » والمبنية من الطين . لم يقم حولها رجل ولا امرأة . ثم بلغنا قرية جبل الاولياء . وهى اقرب للكفور والعزب منها لقرى الريف . بل اقرب للكفور والعزب الصغيرة منها الى العزب الكبيرة .. ومن قبل ان نمر بهذه القرية تبدى امامنا جبل قليل الارتفاع هو الذى سميت باسمه القرية . وهو جبل قاحل من حجر جيرى كسته الشمس المحرقة لونا كالحا .

وتقدمنا نحو مستعمرة الخزان التى اقامتها الحكومة المصرية للمهندسين والعمال الذين سيقومون بالتشييد ومراقبته . وفى هذه المستعمرة منازل عدة وبها مستشفى وقد زرعت فيها بعض الاشجار . وسرنا بين هذه المبانى التى اقيمت من حجر الجبل الى ان وصلنا مقر تفتيش جبل الاولياء ولعلك ان اردت ان تستوضح منه صورة موفق الى ذلك اذا كنت قد رايت بعض دواوين الهندسة فى مراكز مصر او بعضا من مبانى المحاكم الجزئيه فى هذه المراكز

دخلنا التفتيش وجاء الموظفون فاذا بى فى وسط مصرى خالص ، واذا احد هؤلاء الموظفين كاتب كثيرا ما ظهر اسمه على صفحات الجرائد المصرية على مقالات فى التفكير والاجتماع ، ثم راى جبل الاولياء ووزارة الاشغال اكثر فائدة وجدوى من صناعة القلم .

وجعل صبرى بك ينظر فى اوراق التفتيش زمنا . ولما اردت ان اقف على بعض معلومات خاصة بالخزان ذهب الى غرفة مجاورة ثم عاد يخبرنى ان المهندس المقيم مستر تيبر (Ths Resident Engineer Mr. Tabor) يفضل أن نزور المبانى التى تجاور الخزان وان نشهد مكان الخزان وان نرى الاستعداد للتشييد وما حوى هذا الاستعداد من تجارب هندسية كى اتمكن بعد ذلك من ان اطرح عليه ما اريد سؤاله عنه

وسرنا صوب النهر الى حيث تقرر بناء قنطرة الحجز مارين فى طريقنا بسكك حـديد ضيقة (ترولى) لنقل الاحجار والعمال .. ثم انعطفنا فتسلقنا الى حيث كان يقام بناء جـديد للتفتيش يشرف على النهر ويمكن للمقيم به ان يرى العمل اثناء سيره وان يراقبه مراقبة دقيقة ، ولذلك سمى هذا البناء منزل الخزان . ومن عند هذا البناء تسلقنا من جديد قمة وضـع فوقها حجر المحور كمـا يسمونه ومنه يرى الانسان عـلى شـاطىء النهـر حجرين على خط مستقيم معه هما موضع بداية البناء عند كل شاطىء . وعلى حجر المحور هذا اعتـاد الزائرون ان يـكتبوا اسماءهم . وعليه كتبت اسمى انا ايضا مثلما يكتبون .

وانحدرنا من عند حجر المحور الى بناء التفتيش الجديد فالى شاطىء النهر ونحن نتحدث عن هذا الخزان وبنائه فلما كنا عند الشاطىء لفت نظرى حوض كبير فى الارض بنى من أحجار الجبل فسألت عما هو . فاذا السـيرموريس فتـرموريس المهنـدس الانكليزى العظيم فى شئون العمارة كان قد استدعى الى هذه المنطقـة ليبدى رأيه من الوجهة الفنية فيما اذا كانت أحجار جبـل الاوليـاء صالحة لاقامة قناطر الحجز منها أو ان ضروريا جلب أحجار الجرانيت من ناحية مكوار أو ناحية أخرى أقرب منها . وقد بنى هذا الحوض من حجر جبل الاولياء وملىء بالماء لمعرفة تأثير الماء فيه ولتقدير قوة مقاومة القناطر التى تبنى منه . ومع أن هذا الحجر ثبتت قوته فقد ابدى الخبير الفنى رايه بأنه يفضل بناء القناطر من جرانيت وجـد على مسافة أربعين كيلو مترا من جبل الاولياء ويقتضى نقله نفقات غير قليلة ، لكن النفقات يجب أن لا يقام لها حساب كبير عند اقامة أعمال هندسية لها صـفة الدوام كقناطر الحجز لحزن مليارات الامتار المكعبة من الميـاه ذات الضغط الشديد

واستدرنا عند هذا الحوض الى ناحية صهريج ماء مرتفع واقع عند شاطىء النهر لتغذية بعض أعمال البناء والهنـدسة القائمة هنـاك والى جانب هذا الصهريج امتد فى وسط النهر جسر ضيق لا يتسع

لاكثر من شخص واحد يسير عليه ويصل بين الشاطئ وورشة عوامة سمعنا منها أصوات المطارق التى كانت تعمل لاتمام معدات الباخرة كسلا الواقفة الى جانبها فوقفت بعد خطوات من الجسر هنيهة وأجلت البصر فيما حولى. أين أنا الان ؟ ... هذا هو النيل أمامى أراه كما أراه فى دمياط وفى المنصورة وفى القاهرة وفى أسيوط وفى اسوان . وهذه شمس الشتاء الدافئة فوقى تبعث من خلال السماء الصافية البديعة الصفاء أشعتها المحسنة التى تتعاون مع الماء لبعث الحياة فى انحاء الوجود . وهذه هى الباخرة كسلا يقوم بالعمل لاعدادها جماعة من اخوانى المصريين . وهذه الاراضى المتسعة حولى اشبه فى طبيعتها السهلة رغم قيام جبل الاولياء فيها بطبيعة الوادى من مصر الى حلفا والى الخرطوم تقوم فوق اراضيه المنبسطة جبال لاتزيد على جبل الاولياء ارتفاعا . وهاهم السودانيون الذين خلفت بالخرطوم يتكلمون باللغة التى اتكلم بها ويدينون مثلى بالاسلام ويتصلون كما اتصل بماض مجيد يعرف الفراعنة ويعرف الرومان ويعرف العرب . الست اذن فى بيئتى الطبيعية ؟ اليس هذا الصمت المحيط بى يوحى الى من العواطف والمعانى. بما يوحى به صمت ارياف مصر : أوليس ذلك حجة على أن النيل المحسن أب لكل من اقام على ضفافه الفياضة بالخصب والخير والبركة ؛ فكل من اقاموا على هذه الضفاف اخوان يجب ان ينعموا احرارا بخيرات ابيهم العظيم

وسرنا فوق الجسر الى الورشة العوامة وارتقينا فوق سطح الباخرة كسلا . وكسلا احدى بواخر وزارة الاشغال التى تقل المهندسين ومفتشى الرى المصريين مابين الخرطوم والملاكال واعالى النيل الابيض وكانت فى هذا الحوض تجدد غرفها وسطوحها وتعد لراحة المسافرين عليها راحة كاملة . والشىء الذى تمتاز به هذه البواخر الصغيرة التى تسير فى اعالى النيل غرفة كبيرة من السلك يقيم بها المسافرون لتقيهم فعل ناموس الملاريا بهم .

والمسافرون يلجأوا فى الشتاء الى هذه الغرفة نهارهم ويأوون الى الغرف العادية ساعات الليل . اما فى الصيف فالغرف العادية لاتحتمل ليلا ولا نهارا . عندذلك تصبح غرفة السلك هذه هى المأوى وهى الملجأ اليوم كله

وعدنا من حيث اتينا وغادرناوراءنا كسلا والورشة العوامة وصهريج الماء والحوض الذى بنى من الحجروارتقينا الشاطىءحتى وصلنا الى ورشة كبيرة سورت بحوائط من الصاج وقام بالعمل على وابوراتهاجماعةمن المصريين . وهذه الورشة مستعدة لكل مايحتاج الامر اليه فى اعمال التشييد والبناء .

ورجعنا الى تفتيش الرى وقابلت مستر تيبر المهندس المقيم الذى ابدى لى ، بعد تناول التحية ، تمام استعداده لاجابتى عن كل ما اريد أن أسأل عنه فى شئون الخزان الفنية . قال : « اما الاعتبارات السياسية فليست من شأنى ولذلك لاجواب لها عندى »

وقبل ان نبدأ الحديث اطلعنى على خريطة الخزان الذى يمتد — بعد تمام بنائه — من جبل الاولياء الى الدويم . ولما كانت هذه المنطقة تبدو للنظر رملية وكان تسرب المياه اثناء الرمال مما يسهل تصوره كان اول ماسألت المهندس المقيم عنه اذا لم يكن الخزان فى هذه المنطقة من وادى النيل مضيعا لكميات كبيرة من المياه خصوصا وان ارتفاعها فى النهر مدة التخزين يجعل ضغطها على الرمال اكبر . ومن شأن ذلك ان يزيد كمية المتسرب خلال الرمال ؟

فكان جوابه :

« لقد ورد مثل هذا الخاطر بنفس الذين فحصوا هذه الارض قبل البت ببناء الخزان عليها ، فقاموا باجراء تجارب اقنعتهم ان الارض صماء لا تتسرب المياه خلالها اكثر مما تتسرب خلال اية منطقة جبليه . وما نزال نحن موالين اجراء مثل هذه التجارب وكل ما نقوم به منها يزيدنااقتناعا بصلاح المنطقة للخزان . من هذه التجارب انا حفرنا ابارا كثيرة على شاطىء النهر ما بين

جبل الاولياء والدويم وتركناهذه الابار ازمانا طويلة . وقد لوحظ ان هذه الابار لا تتاثر بالفيضان ولا بالتحاريق . فارتفاع الماء فيها وغيضانه منها لا علاقة له لبتة بارتفاع النيل وانخفاضه . وهذا دليل على ان تسرب الماء هذه الارض ليس يسيرا كما قد يبدو للنظرة الاولى . وزادنا اقتناعا بصلابة الارض وعدم قابليتها للتسرب ان المياه فى هذه الابار لم تكن ترتفع وتنخفض وتغيض بنسبة واحدة ولا فى اوقات واحدة ، فمن هذه الابار ما كان يرتفع ماؤه اكثر من غيره ومنها ما كان يغيض فيه الماء بينا ما يزال غيره يرتفع الماء فيه . وفضلا عن ذلك كله فان ارتفاع ماء فى هذه الابار لم يصل يوما من الايام الى محاذاة ماء النهر ولم يزد يوما على ان كان ماء نشع كما يرى فى اية منطقة غير منطقة جبل الاولياء وكما يرى فى بعض المناطق الجبلية الصخرية

« هذه واحدة من التجارب . وتجربة اخرى اننا وضعنا اسطوانة نحاسية ارتفاعها خمسة امتار عمودية على هذه الرمال وملاناها بالماء . وتركناها اياما طويلة فلم ينقص الماء فيها اى نقص مما يدل على ان الرمال لم تتشرب منها شيئا

« واكثر من خمسين تجربة من هذا النوع اجريناها وكلها دلت على ان ارض هذه المنطقة صماء وان التخزين بها لا يخشى معه من تسرب الماء خلال الارض ولا من تشرب الارض للماء . فاذا لوحظ الى جانب ذلك كله ان مقدرة الارض على التشرب تنتهى كما تنتهى مقدرة الماء على اذابة اى مادة قابلة للذوبان — كالسكر وكالملح — تلقى فيه ، وان فيضان النيل فى هذه المناطق يرجع الى الاف السنين لم يبق امامنا موضع للريبة فى ان نظرية التسرب نظرية لا اساس لها »

لم اجد ما اعترض به على هذه الاقوال ، ولاحظ ذلك مستر تيبر . فانتقل من مسالة التسرب الى الحديث عن جبل الاولياء ووظيفته الحقيقية فقال :

« تعلم ان مصر بحاجة الى اربعة عشر مليارا من الامتار

المكعبة من الماء لامكان رى كل ما يمكن ريه من اراضيها القابلة للزراعة . وخزان اسوان الحالى لا يحجز اكثر من مليارين ونصف مليار . وخزان جبل الاولياء لن يقوم بحجز كمية اكثر مما يحجز خزان اسوان . ولا سبيل الى الحصول على التسعة المليارات الباقية لسداد حاجات مصر المائية فى مستقبل غير بعيد الا التخزين على البحيرات الاستوائية التى ينبع منها النيل الابيض . وهذه هى مشروعات الرى الكبرى التى يفكر فيها منذ زمان طويل — من أيام كان السير وليليام جارستن مستشارا لوزارة الاشغال المصريه . والمياه المخزونة فى المناطق الاستوائية لاتصل الى مصر قبل ثلاثة أشهر أو ثلاثة أشهر ونصف . فلامفر والحالة هذه من وجود حوض منظم تحجز عنده كميات من المياه كافيه للحاجات العاجلة ويمكن ان تصل الى مصر فى اسبوعين أو ثلاثة اسابيع ذلك بأنه اذا طلبت اصوان الماء اللازم لمصر من بحيرة البرت التى سيكون عليها الحجز العام فمن الواجب أن يطلب هذا الماء للحاجات التى تنتظر فى مصر بعد ثلاثة اشهر او اربعة . وقد يكون من الصعب التنبؤ بما سيكون من هذه الحاجات . ففى أثناء ثلاثة اشهر أو اربعة قد ينزل من الامطار فى مناطق الحبشة أو فى مناطق اخرى مايغنى مصر عن هذه المياه . وفى هذه الحالة — حالة ما اذا لم يكن هناك حوض منظم وكانت المياه تسيل من البرت لاصوان مباشرة — يضطر رجال الرى الى ترك هذه المياه تمر للبحر الابيض المتوسط وتضيع فيه . والغايه من اقامة قناطر الحجز انما هى التفادى من ترك الماء يضيع واستبقاؤه للانتفاع به عند الحاجة . فأما مع وجود خزان جبل الاولياء ، وملئه كلما سحبت مصر المياه التى به ، والحجز بعد أن يمتلىء على بحيره البرت فثم مايكفل عدم طلب مصر الا ماتتوقعه من حاجاتها الى الماء بعد الاسبوعين او الثلاثة الاسابيع الكافية لمسيرة الماء من جبل الاولياء الى اصوان . وتعرف حاجات البلاد المائية بعد خمسة عشر يوما أيسر كثيرا من

تعرفها بعد ثلاثة أشهر أو اربعة ففرض ضياع الماء فى البحر الابيض المتوسط تكون فى هذه الحالة اقل بكثير . وهذه هى الوظيفه الحقيقية الدائمة لخزان جبل الاولياء . هو حوض منظم أكثر منه خزانا . لكنه سيكون خزانا الى أن يتم تعديل مجرى النيل فى منطقة السدود واقامة الحجز على بحيرة البرت .

وطال الحديث بنا فى هذه الشئون لم شكرت المستر تيبر وخرجت وأصحابنا المهندسين المصريين الى حيث تناولنا طعام الغداء فى دار أحدهم بجبل الاولياء وتركنا هذه المستعمرة المصرية التى لاتظهر امام العين أكثر من مستعمرة صغيرة تكفى خمسون الفا أو مائة الف من الجنيهات لانشائها والتى يقال مع ذلك انها استغرقت ثمانمائة الف من الجنيهات ، تركناها عائدين الى الخرطوم حيث وصلناها ساعة آذنت الشمس بالمغيب .

***

آويت الى الفندق ورأسى مشغول بمشروعات الرى الكبرى ، هذه المشروعات التى لم تشغل بال المصريين مثلما شغلته منذ سنة ١٩٢٠ حين كانت حركة مصر الاستقلالية على أشدها وحين داخل الناس الروع على مصيرهم اذا ظلت مفاتيح النيل فى يد غير يد مصر . فلقد علت الصيحة يومئذ بأن مصر كانت منذ الازل متمتعة وحدها بمياه النيل وبطميه المخصب ، فمن الغبن ومن الاعتداء على الحقوق حجز هذا الماء او بعضه عنها لزراعة القطن او غير القطن فى السودان ، ومن الغبن وضع تصرف النيل الذى كان دائما بيد المصريين فى ايد اخرى تستطيع ان تتخذ من ذلك وسيلة لتهديد مصر فى حياتها وعيشها لسبب ولغير سبب . لكن هذه الصيحة كانت متأخرة من ناحية وكانت متهمة بالغرض الذاتى من ناحية اخرى ، وكانت سياسة سيئة كذلك .

ومع ان المصريين جميعا اشتركوا فيها اندفاعا وراء المهندسين الذين قاموا بها وفى مقدمتهم السير ويلم ولككس

والمستر كندى الانكليزيين فاننى اشعر اليوم شعورا عميقا بانها لم تكن صيحة موفقة بحال من الاحوال . كانت متاخرة لان مشروعات الرى التى قامت الصيحة ضدها لم تكن بنت الحرب بل الحرب كانت عطلتها . ولم يبدأ بحثها وتصميمها قبل الحرب مباشرة بل بحثت ووضع تصميمها وقررت المبالغ اللازمة لانشائها قبل الحرب بسنوات . مع ذلك لم يعترض عليها احد ولم ينكر احد ما افادت مصر من انشاء خزان القناطر الخيرية ومن انشاء خزان اصوان وتعليته كما لم ينكر احد حاجة مصر للماء اذا اريد التوسع فى رى المساحات القابلة للزراعة فيها . فالمبدأ من حيث هو تقرر قبل الحرب بنحو خمس عشرة سنة . وطريقة التنفيذ وضعت فى سنة ١٩٠٩ وبدات اعمالها التمهيدية فى سنة ١٩١٢ وكان هؤلاء المهندسون الذين اقاموا الضجة فى مصر يشغلون وظائف هندسية كبيرة ومع ذلك ظلوا جميعا لا يرفع احد منهم صوتا . وكانت هذه الصيحة متهمة بالغرض الذاتى لان سير ولككس ومستر كندى لم يعترضا كما تقدم الا حين نشاط الحركة الاستقلالية المصرية وبعدما استقل السير مردخ مكدونالد بالاشراف فى انكلترا على مشروع الجزيرة من غير ان يشتركا واياه فيه مع ما كان لهما من المقام فى الاعمال الهندسية بمصر والسودان . وكانت الصيحة سياسة سيئة لانها اتخذت حجة عند السودانيين بأن المصريين يريدون الاستئثار بخيرات النيل وحدهم مع مايعلنون من انهم يعتبرون السودان ومصر قطرا واحدا ويفضلون ان نهدر مياه النيل فى البحر الابيض المتوسط على ان ينتفع بها غيرهم ، ولو كان هذا الانتفاع غير ضار بالمصريين انفسهم ، اذا قام المصريون وقام السودانيون ببناء القناطر اللازمة التى تحجز الماء للانتفاع به بدل تركه يسيل الى البحر الابيض المتوسط .

اشعر اليوم شعورا عميقا بان هذه الصيحة لم تكن موفقة صحيح ان اولوية مصر فى الانتفاع بمياه النيل اولوية تاريخية ثابتة لا سبيل الى انكارها ، لكنها لا تؤدى الى اكثر من حق مصر فى استيفاء

حاجاتهـــا من ماء النيل قبـل غيرها . وما دامت الميـــاه التي تفيض من النيلين الازرق والابيض يمكن حجزها والانتفاع بهالتوسع مصر الزراعى ولزراعة السودان والبلاد الواقعة على شـــواطىء النيل فمن الجريمة فى حق مصر وفى حق هذه البلاد المجاورة لها والمتصلة بها ، وفى حق العـالم وفى حق الانسانية ، ان لاتضبط هذه الميـاه أدق الضـــبط وأن لا تستفيد منها مصر والسودان وغير السودان الفائدة التى تجعل اراضيها تنتج أغزر نتيجة ممكنة والتى تفيد الصناعة وغير الصناعة من القوى الكمينة فى انحـــدار مياه النيل مما تستطيع الوسائل العلمية استخلاصه منها .

ومياه النيل اذا ضبطت ليست كافية لرى القابل للزراعـــة من أرض مصر والسودان وغـــير السودان فحسب ، بل لتجعـل من كثير من الاراضى الاخـــرى الصحراوية واحات وجنـات . وما دام العلم قد سخر للنـاس قوى الطبيعة فمن الجهل ومن السخافة ان لا يســـتغلوا كل ما يستطيعون استغلاله من هذه القوى

ولست أريد فى سبيل التدليل على هذا ان اضـل القـارىء فى بيداء الارقام والمكعبات . فلست مهندسا واكثر القراء ليســـوا مهندسين . ويكفينى أن أذكر أن حاجات مصر الحالية للمـــاء المخزون تعادل مليارين ونصـف مليار من الامتار المكعبة . وحاجة السودان الحالية تعـادل ٨٠٠ مليون متر مكعب من الماء المخزون كذلك . أما مياه الفيضان فـلا حساب لها لانها أضعاف مضاعفة عن حاجات مصر والســـودان أثناء الفيضان . فاذا كان ممكنا أن يحجز فضلا عن ذلك ثـلاثة مليارات ونصفا فى بحيرة تسانا ومليارين ونصفا عنـد جبـل الاولياء (أو عند أســـوان اذا امكنت تعليـة الخـزان وملؤه) وأربعة وعشرين مليارا فى بحيرة البرت امكن القارىء أن يتصـور ما يمكن زيادته من المســـاحات المنزوعة فى مصر والســـودان . وعند ذلك يشعر معنا بعـــدم توفيق تلك الصيحة التى اندفع الناس لها وراء انتقادات السير ولككس ومستر كنـدى والتى كانت ترمى الى غرض اخر

صحيح ان تفاصيل الانتفاع بهذه المياه وكفالة ما لمصر فى ذلك من أولوية يحتاج الى دقة فنية كبيرة . وان من حق المصريين المعترف لهم بهذه الاولوية ان يراقبوا تصرف مياه النيل منذ صدورها من منابعه . وقد كان ذلك متبعا الى آخر الحرب بسبب مطالبة المصريين بحقهم الطبيعى فى الاستقلال وحرصهم على وحدة مصر والسودان فى هذا المطلب أدت مع الاسف الى منازعة انكلترا مصر هذه المراقبة المترتبة حتما على أولويتها فى الانتفاع بمياه النيل . وبلغ النزاع أشده على أثر مقتل السير لى ستاك باشا حاكم السودان العام بالقاهرة . فقد ذهبت انكلترا فى انذارها الذى وجهته للحكومة المصرية بتاريخ ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٢٤ على اثر هذا الحادث الى انكار اولوية مصر التاريخية والى ان ايدت حكومة السودان فى اباحة زراعة ما تريد زراعته فى سهل الجزيرة من غير حاجة الى ان يتم بين هذه الحكومة وحكومة مصر اتفاق سابق على هذه الزيادة . ومن غير تقدير لما يترتب على هذه الزيادة من الضرر باولوية مصر التاريخية فى الانتفاع بماء النهر . فلما هدات الاحوال نوعا وآن للتفكير السليم ان يحل محل العجلة التى اندفعت اليها انكلترا فى تقرير سياستها بمصر على اثر ذلك الحادث عدلت عن هذه الفقرة من انذارها ، وقررت اولوية مصر فى الارتفاق على مياه النيل فى وثيقة رسمية ، واتفقت على ان تحدد لجنة المساحة التى يمكن زيادتها على الثلاثمائة الف فدان المنزرعة قطنا وان تبحث كذلك مبلغ حاجات مصر لمياه النيل الازرق ومتى يجب ان يكون تصرف هذا النهر كله وقفا على مصر فلا يكون للجزيرة الا ما حجز من الماء فى خزان سنار

وقد قامت هذه اللجنة بالمباحث التى كلفت القيام بها . والمفهوم ان الاتفاق تم على ان تزاد مساحة مشروع الجزيرة الى اربعمائة وخمسين الف فدان بدل ثلاثمائة الف . والحجة فى ذلك ان خزان سنار يكفى متى ملىء لرى نصف مليون من الافدنة

وان ملاه لا يضر بحاجات مصر للماء ، فلا ضرر من زيادة المساحة خمسين الف فدان اخرى . والمفهوم كذلك أنه قد تقرر أن بدء حاجات مصر لتصرف النيل الازرق كله يقع فى اول يناير فى السنين العادية وفى ١٨ ديسمبر فى السنين الواطئة الفيضان . وعلى ذلك يجب البدء بتفريغ خزان سنار فى هذه التواريخ بدلا من ١٨ يناير وهو التاريخ الذى اشار اليه الفى بك فى المذكرة التى اثبتنا صورتها فى الفصل السابق

وقد اعترف لمصر فى هذا التقرير بحقها فى مراقبة تصرف النهر كما اعترف لها بمراقبة تصرف خزان سنار . لكن تفاصيل الوسائل التى تتم بها هذه المراقبة لم تعرف بعد . وهى لا تعنى فيما اعتقد غير المهندسين

والمفهوم ان هذا التقرير وضع المبادىء المشار اليها بصفة مؤقتة يعاد النظر فيها عند تمام انشاء خزان جبل الاولياء وضبط المياه التى تستطيع مصر ان تستفيدها منه . ذلك بان انشاء خزان جبل الاولياء كان امرا مقررا يوم وضع هذا التقرير ولم يكن يدور فى حساب احد ان توقف الاعمال فيه لاعادة النظر فى صلاحه ام فى افضلية تعلية بناء خزان اسوان على انشائه . لكن الحكومة التى عقبت حكومة زيور باشا (وهى حكومة عدلى باشا ووزير الاشغال فيها عثمان بك محرم) قررت وقف العمل فى جبل الاولياء وانتداب لجنة دولية للبت اى الاثنين افضل : انشاء الخزان المذكور ام تعلية خزان اسوان . والى ساعة كتابة هذه السطور ايضا لم تحضر اللجنة الدولية التى قررت الحكومة انتدابها منذ ستة شهور ، بل لم تدع هذه اللجنة للحضور ، بل لم تجمع المعلومات والبيانات التى تمكن اللجنة من الفصل فيما يراد منها ان تفصل فيه

ولست فنيا فى شئون الهندسة والرى لاقطع فى الامر براى . وهذا الموضوع لا يدخل فى نطاق كتاب وضع عن عشرة ايام قضيتها فى السودان . لكن ما اخذت به نفسى فى مقدمة الكتاب من ان

اوجه حظا كبيرا من همى ومن عنايتى الى هذه المسالة الخطيرة التى لم تنج فى مصر كما لم تنج فى السودان من شوائب الشهوات السياسية ، والتى كانت سببا لنشر دعوة تثير بين المصريين والسودانيين العداوة والبغضاء جعلنى أخشى ان يكون الخلاف فى مسالة اسوان وجبل الاولياء مشوبا بهذه الشهوات السياسية بينما كان واجبا ان يظل فى دائرة البحث الفنى الصرف وان يترتب عليه ما ترتب على الصيحة العامة التى قامت فى سنة ١٩٢٠ بزعامة السير وليم ولككس والمستر كندى والتى اتهمت بما اتهمت به

والراى عندى ان مشروعات الرى التى تقام على نهر محسن كبير كالنيل ليست معاقل سياسة يرجى من ورائها اخضاع شعب من الشعوب ولكنها تحوير فى الطبيعة يتمه العلم لفائدة الانسانية وليست مصر وليست السودان وحدهما هما اللتان تستفيدان من هذه المشروعات ، بل تستفيد منها الانسانية جمعاء فائدة عظيمة . وما دام صحيحا ، اقتصاديا ، ان كل زيادة فى الانتاج الزراعى او المعدنى او الصناعى تحدث فى ناحية من الارض تفيد الانسانية جمعاء فمن الجريمة ان تستغل اسباب هذه الزيادة لشهوات سياسية وسيان كانت هذه الشهوات فى امر مشروعات الرى على النيل ناجمة عن مطامع انكلترا او عن مخاوف مصر . وامام المصريين مثل فى قناة السويس وموعظة . لقد حورت هذه القناة الطبيعة لمصلحة تجارة العالم كافة فزادت بذلك رخاء الناس طرا . وبالرغم مما اثارته من الشهوات والمطامع السياسية التى اضرت بمصر فقد افادت مصر من القناة فائدة مادية وفائدة معنوية كبرى . واذا كانت لم تفد كل ما كانت تستطيع افادته فليس الذنب فى ذلك على هذا التحوير الصالح للطبيعة . بل الذنب على الظروف الخاصة التى احاطت بالاجيال الحاضرة والتى نبهتنا لتمهيد السبيل لسعادة الاجيال المستقبلة

ومشروعات الرى الكبرى تحوير للطبيعة من هذا النوع . فالطبيعة تجعل مياه النيل تنحدر بها الامطار فى فصل معين من السنة فتنساب فى مجراه لتضيع فى البحر الابيض المتوسط واذا امكن ضبطها للاستعانه بها فى فصول السنة المختلفة . كان ذلك خيرا لمصر وللسودان وللناس جميعا فى اقطار الارض المختلفة . وقد عولج ضبط هذه المياه منذ قدماء المصريين وعولج فى القرن الاخير بنجاح . فمن الجريمة عدم ضبطها اليوم ولدينا من وسائل العلم ما يمكننا من ذلك

واذا كان واجبا أن يعلن أمثالى من غير المهندسين هذا الرأى بمثل هذه الصراحة فواجب المهندسين الذين يحترمون انفسهم ويريدون أن يسخروا علمهم لمنفعة وطنهم وخدمة الانسانية أن يعلنوا آراءهم الفنية فى هذا الموضوع وفى كل موضوع يعتقدون صلاحه وفائدته . وليس يجدر بهم بحال من الاحوال ان يخلطوا اعتبارات السياسة باعتبارات الفن . فاعتبارات السياسة وقتية واعتبارات الفن دائمة . والسياسة ظروف تنتهز ولكن العلم والفن مبادىء وقواعد تقرر . وقد يبدو لك امر من الامور السياسية اليوم فى لون فاذا هو بعد زمن قصير فى لون آخر . وقد تحسبك مستطيعا أن تحكم تصريفه سياسيا فاذا تقديرك انقلب عليك غدا فاضطررت الى البحث عن تصريف لذلك الامر جديد . ومثل هذه الشئون الدائمة المور مع الحياة لا يصح لعالم يبحث مسألة من المسائل المتعلق بها علمه أن يدخلها فى حسابه . انما عليه ان يقول فى طمأنينة ضمير وطهارة ذمة ما يعتقد حقا عليه لعلمه وحده ان يقوله . ويجب عليه لذلك ان ينسى ساعة ابدائه الرأى أنه أمة ضعيفة وان ينظر فى الامر لذاته لا للظرف السياسى المؤقت المحيط به

ولعل هذه النظرة العالية المتجردة عن العاطفة السياسية

أهون على المصريين فى مشروعات الرى الكبرى منها فى أية مشروعات اخرى . فالسودان ومصر وطن واحد فى الحقيقة . وأهل اصوان اقرب الى حلفا منهم الى القاهرة . والروابط التى تربط مصر والسودان كثيرة وثيقة ان ضعضعتها احداث السياسة يوما فلن تفضها . ثم هى لن تضعضعها الا الى اجل . وذلك الاعتبار أصح اليوم منه فى كل يوم مضى . فالامم فى الغرب والشرق تتقرب بعضها من البعض الآخر ولو كانت بينها فواصل طبيعية وليس بينها من الصلة ما بين مصر والسودان . وكلما ازدادت وسائل المواصلات تهدمت الحدود الصناعية بل الحدود الطبيعية . واذا كانت الامم تسعى اليوم للقضاء على الحواجز الجمركية التى أدت كثرتها الى ما يعانيه العالم منذ الحرب الكبرى من أزمات اقتصادية فمعنى ذلك أن ما أقيم فى الماضى من الحواجز الصناعية سيتهدم بطبعه

ولسنا الآن بمعرض بحث هذه العلاقة بين مصر والسودان فسنفرد لها الفصل الاخير من هذا الكتاب . لكنما نورد ما أوردنا لنقول أنه اذا وجب على رجال العلم ان يطرحوا جانبا اعتبارات السياسة فى أبحاثهم فذلك أوجب فى بحث مشروعات الرى الكبرى بين مصر والسودان

عشية الأوبة

يوم بحلفا وبشلال حلفا

عدت من حبل الاولياء مساء وقد اعتزمت السفر بالقطار الخاص الذى يبرح الخرطوم صباح الغد قاصداً حلفا . وكان فى نيتى ان اتناول طعام العشاء ثم أحزم متاعى وآوى الى مضجعى لاستريح من عناء هذه الايام التى قضيناها بالسودان فى مثل نظام الجند حلا وترحالا . لكن عزمى لم يتحقق اذ ألفيت جماعة من اصحابنا الذين دعونا الى الشاى بالمكتبة القبطية امس فى بهو الفندق ومعهم بعض اخواننا المصريين الذين جعلوا من مقامنا بالخرطوم مقاما بين اهل واصدقاء فأمضينا شطرا من الليل تناول حديثنا فيه شتى من شئون السودانيين والمجهودات التى تقوم بها حكومة السودان فى سبيل تعميره ليكون مزرعة من ابدع مزارع القطن فى العالم . واهل السودان قسمان : عرب وزنوج فأما العرب فيمتازون بدقة فى قسمات الوجه وبرقة الشفاه وارتفاع قصب الانف . وهم ينقسمون أفخاذا وعشائر كشعوب شبه الجزيرة . اما الزنوج ففطس الانوف غلاظ الشفاه غائرو الاعين . وهم يقيمون اغلب الامر فى داخلية السودان تحت امرة سلطان منهم ماتزال نفسيته نفسيتهم وروحه روحهم . وبرغم امتداد الحضارة الى الخرطوم والى ام درمان عن طريق اهل الجنسيات المختلفة الذين يقيمون بهما وعن طريق المصريين بنوع خاص اذ يمتون الى العرب السودانيين بكثير من الصلات بينها الدين واللغة والمصاهرة والعادات ، فان داخلية السودان

ماتزال فى شبه الحياة البدائية التى يقصون مثل قصصها عمن عاشوا فى مجاهل الارض منذ آلاف السنين . قص احد الذين حضروا معنا فى هذه الامسية انه كان مسافرا الى وجاف فى المنطقة الاستوائية ، فمر بأحد السلاطين الزنوج وطلب ان يحظى بالمثول فى حضرة عظمته وظهر من وراء السلطان مائتان ، معلمة رماحهم ، وكلهم فى خدمته ، فلما حظى محدثنا بحضرة السلطان قدم الى عظمته من الهدايا بعض المرايا وبعض الورق المفضض الذى تلف به قطع الحلوى ، فكان اغتباط عظمته بهذه الهدايا عظيما ولعله امر لمن قدمها بشىء كثير من العاج ومن ريش النعام .

وقص محدثون اخرون شيئا من مثل هذا القصص فأذكرنى ذلك جان جاك روسو ورجل الطبيعة الذى صوره فى كثير من كتبه والذى جعله المثل الاعلى للسعادة وودعه ان تعود الانسانية الى احتذاء مثاله . وابتسمت لهذه الذكرى وتساءلت لو كان يرضى روسو بمثل عيش هذا السلطان وجنوده . ثم سرعان ما زالت ابتسامتى حين سمعت المحدثين يذكرون من شهامة هؤلاء الزنوج وبسالتهم واحتقارهم الحياة واقدامهم على الموت طائعين . زالت ابتسامتى وتخيلت روسو منتصرا يقول : « أرأيت يا صاح انهم سعداء لان مطامع الحياة وشهواتها لم تكتسح من نفوسهم اسباب العظمة الحقة التى تصل الانسان بالطبيعة وتجعله جزءا منها سعيدا بها مطمئنا اليها . وهم سعداء لان العلوم والفنون لم تخدعهم بباطل زخرفها ولم تزين لهم من الوان اللهو متاع الغرور ، ثم هم سعداء لانهم يعيشون عيش البساطة فكل ما ينالونه من خير يزيدهم سعادة . فلم لا تعيش الانسانية عيشهم فتطرح وراءها هذا الزخرف الباطل الذى نسميه الحقائق والعلوم والفنون والذى لا يزيد على انه عبث الذهن ولهو الخيال ؟ »

وأمسكت عن الاندفاع فى هذا التفكير حين اضطررت لمشاركة اخواننا ما تحدثوا عن مصر واحوالها وسألونى عما اعتقده مصير ما تم بين أحزابها من ائتلاف . والحديث فى السياسة كحديث الافاعى

يطول . فاستغرق كلام اخواننا فى مصر وشئونها بقية سهرتنا .
ثم ودعونى واعتذر جماعة منهم بعملهم عن توديعى ساعة الرحيل
من الخرطوم

وتنفس صبح الاحد ٢٤ يناير واعتلت شمسه سماء السودان
الصافية الاديم وتناولت الشاى واعددت متاعى وذهبت الى قاعة
الطعام للافطار ثم خرجت من بهو الفندق الى حديقته الصغرى التى
تفصل بين سياج الفندق وبنائه . وألفيت عند الباب سيارة كبيرة
وسيارات صغيرة بعثت بها حكومة السودان لتقلنا جماعة
ضيوفها الى المحطة فى طريق عودتنا الى مصر . وتخطيت الشارع
وألقيت نظرة على صفحة النيل الازرق وتلفت حولى أودع هذا
المنظر الذى ألفته وألفنى أسبوعا كاملا . فى هاته اللحظة دب الى
نفسى احساس يخالجها كلما فارقت بلدا احتوانى وأنا فى شك
من العودة اليه . واحساس الفراق يمتزج فيه الالم بالامل ، والخوف
بالرجاء . وهل الفراق الا بعض صور الفناء والعدم والموت ! هل
هو الا انهيار ما نفارق فى لجة مالا نرى وما لانحس الا خيالا
وحدسا . فى هذه اللجة الفسيحة الممتدة الى اللانهاية والمحجوبة عنا
بآفاق قريبة لاتزيد على مدى ماتصل اليه حواسنا . وهو
انهيار مخوف فى لجة الزمن الذى لايذر العالم لحظة من غير مور
ولا تجدد . ومن يدرى ماتكون الخرطوم وام درمان والسودان
ان قدر لى ان اعود اليه بعد سنوات ؟! هل أجد هذه الاشياء
التى ألفت والتى اصبحت جزءا من حياتى كلما خلفتها ؟ ام ارى
مكانها شيئا جديدا أسدل عليها ستار الفناء وقام مقامها ! والحق
عندى ان كل ما نرى وكل مانحس وكل عاطفة تهز فؤادنا وكل فكرة
تجول بخواطرنا هى بعض حياتنا القصيرة التى تنقضى بعد أن
تصبح هى الاخرى بعض حياة الوجود الازلى الابدى .
ولئن كان كل ما يصيب المادة يترك فيها أثرا لايزول —
على حد قول هربرت سبنسر — فما اشك انا فى أن كل مايصيب
حياة الوجود يترك فيها أثرا لايزول

دب الى نفسي الاحساس بالفراق حين رأيت السيارة الكبيرة التى أعدت لنقل المتاع والسيارات الاخرى التى أعدت ليستقلها المسافرون . ومن شأن الظروف التى تحيط بنا ساعة الفراق ان تجعل هذا الاحساس مبهما . فنحن ساعتئذ فى شغل بمتاعنا وبالمسافرين معنا وبما ينتظرنا فى سفرنا . وكنا جماعة المسافرين من الخرطوم أشد ما نكون شغلا . فهذا يبحث عن بعض ريش النعام يهديه اصدقاءه فى مصر أو فى غير مصر . وهذا قد نسى بعض ما ابتاع أمس فى مخزن مقفل اليوم — يوم الاحد — ويريد أن يدبر الوسيلة للحصول على ما ابتاع . وهذا ثقل متاعه فما يدرى كيف يحزمه . ورجال البوليس وسائقو السيارات يستعجلون المسافرين لينتهى واجبهم . وأخيرا سارت السيارات تخترق بنا طرق الخرطوم فازدادت نفوسنا احساسا بمعنى الفراق . ثم انطلق القطار فى منتصف الساعة التاسعة يقطع الطريق التى قطعناها آتين من حلفا حتى بلغ عطمور أبى حمد بعد ما أرخى الليل سدوله . وبلغنا حلفا فى منتصف الساعة العاشرة من صباح الغد . ونقل متاعنا من القطار الى الباخرة بريتانيا التى كان مقررا ان تسافر فى أوليات المساء . فلم يك بد من ان نمضى النهار بحلفا .

حلفا بلد صغير أشبه ببنادر المراكز فى مصر فليس فيه ما يستوقف النظر ، وحكومة السودان جد حريصة على أن لا يشعر ضيوفها بشىء من الملال . لذلك نظمت لهم سياحة صغيرة فى الصباح الى معسكر حلفا كما نظمت لهم نزهة بعد تناول طعام الغداء على ظهر الباخرة يزورون فيها شلال حلفا ويشهدون منه منظرا من أعجب مناظر الطبيعة وأكثرها جلالا ورهبة .

ومعسكر حلفا ، والى جانبه بيت كتشنر ، يقع على نحو ثلاثة كيلو مترات من محطة وادى حلفا . لذلك ركبنا اليه قطارا سار بنا حتى كنا حذاءه . وقد ركب معنا هذا القطار جماعة من الامريكيين لم يكونوا بالخرطوم ولكنهم جاءوا الى حلفا للنزهة

بعد ان قضوا فى فندق الشلال باسوان زمنا غير قليل استحبوا معه تغيير منظر اسوان . والامريكيون شعب جديد حقا . فالامريكى لايشعر بأنه مقيد بما يشعر أهل العالم القديم بأنهم مقيدون به من عادات ومن قواعد للسلوك فى حركاتهم وفى تحياتهم وفى ملابسهم . ولقد لفتنا منظر شاب يسير فى سراويل بيضاء وينتعل حذاء ثقيلا غاية الثقل ويرتدى فوق أكتافه جاكتة وصدرية عجيب شكلهما . ولم يكن الانكليز ممن معنا أقل منا دهشة لهذا المنظر ، وكان هذا الشاب يسير مع سيدة نصف ورجل متقدم الى الكهولة ، عرفت فيما بعد أنهما ابواه ، وان هذا الكهل استاذ باحدى الجامعات الامريكية . واتصل بينى وبين هذه الاسرة حديث طويل أبدى الشاب خلاله من العجب للانكليز والاوربيين ومحافظتهم مثل ما ابدوا من العجب لاستخفافه بالتقاليد . ومع هذا النقد المتبادل وصل السفر بين الجميع فجعل كل يفضى الى أصحابه بما رأى وكيف تأثر به .

معسكر حلفا فضاء واسع من الرمال لم يبق من آثاره الا قوس فخم لمحناه ساعة نزلنا من القطار ، وكان هذا الفضاء مضرب خيام فرق الجيش المصرى التى جاءت مع مصطفى فهمى ومع كتشنر من بعده لفتح السودان . على أنا لم نقصد بادىء الامر الى القوس ولا الى الفضاء الذى أصبح صامتا وكان من قبل معسكرا لرجال الحرب وعدته ، بل ذهبنا الى دار قيل انها محافظة أو ما يشبه المحافظة كل ابوابها صدئة وليس فى عمارتها ما يلفت النظر . وانتقلنا من هذه الدار الى دار أخرى كانت منزلا لكتشنر شعرنا أول ما دخلناها بابتهاج أثاره فى نفوسنا ذلك الزرع الناضر والخضرة الباسمة القائمة امام المنزل والممتدة الى شاطىء النيل . ولقد استوقفنا هذا المنظر الناعم وسط جفاف الصحراء حوله ، وأخذ بمجامع الفؤاد انفساح النهر وقيام كثبان الرمل وراءه متموجة بين صعود وهبوط كأنها بعض موجه حين الفيضان . وكان للشمس فوق هذا المنظر وفى ذلك اليوم

من ايام الشتاء سنا يأخذ بالابصار ثم أدرنا عيوننا الى ناحية هذا المنزل الذى شهد من تدابير الحرب والسفك ما شهد والذى أصبح اليوم صامتا صمت مصطفى فهمى وكتشنر فى حجب الغيب وان كان على خلافهما ما يزال معرضا لعبث الحياة ولتدابير الحرب والسفك : ثلاث غرف قيمتها ماتكنه من الذكرى لاجمال فيها الا جمال ما شهدته من بطولة واقدام . ألم يكن الذين أقاموا فيها قواد الجيش المصرى الباسل الذى نفذ الخطط التى وضعت بشجاعة وجرأة سجلا له على التاريخ فخرا خالدا ! وعلى ظاهر جدران احدى الغرف نقش تذكارى للذين اقاموا فيها واحتملوا مع الجند ما احتملوا من مضض وتضحية . والى جانب اللوحة زير قديم من الفخار لعله فى هشاشة بنائه أصلب على الحياة من أولئك الذين شربوا من مياهه ولم يبق لهم اليوم على الحياة غير الذكر ، والزير لا يزال باقيا تمجده الانظار ويود أصحابها شربة من مياهه . وتعلقت الابصار بهذه الآثار وجاهد كل مصور يريد أن يأخذ منها رسما برغم معاكسة الشمس له . على ان الابصار لم تكن بالحديقة وبالنهر وبكثبان الرمل على شاطئه الثانى أقل ولعا . فكانت ما تكاد تستقر على البناء برهة حتى تعود لتجتلى من هذا المنظر البديع المتجدد على الزمان ما تجدد الزمان جماله الساحر وسحره الفتان .

وخرجنا الى فضاء المعسكر القديم والى القوس الباقى من آثاره . وذهب البعض بخيالهم الى ذلك التاريخ القريب حين كانت الجنود الذاهبة من حلفا الى الخرطوم تقف فى هذا المعسكر الى ان تتلقى الاوامر بالاندفاع فى تيه العطمور لانشاء سكة الحديد او لسحب السفن بين احجار الشلال . وبقى اخرون سعداء بالجو الجميل حولهم وبالصور التى كان ياخذها المصورون لجماعتهم . وكان وقت الظهيرة قد اقترب فعدنا ادراجنا الى القطار الذى عادبنا الى محطة حلفا حيث نزلنا عائدين الى بريتانيا .

ونلنا من الراحه مانلنا ثم انتقلنا بعد تناول طعام الغداء سفينه أخرى سارت بنا جنوبا نحو ساعة . فلما بعدنا عن حلفا ببضعة كيلو مترات تبدت امامنا مقدمات الشلال ، فانتشرت فى لجة النهر اكام صخرية من الجرانيت الاسود كانت مبعثرة بادىء الامر فللماء من خلالها فرضات ينفذ منها . لكنها كانت يقترب بعضها من بعض كلما اقتربنا نحن منها حتى تلاحمت او كادت وحتى لم يبق للماء امام العين الا مسارب تقف عند نتوء صخرى قريب . وملات اكام الجرانيت ما بين الشاطئين وترامت الى مرمى النظر والى غاية الافق متموجة فى لونها الداكن كانها ظهور قطيع ضخم من الفيلة ماتكاد تتحرك أو تتلوى الا بمقدار عبث الضوء بها وانعكاسه عنها . وامتدت بين هذا القطيع من الجرانيت ابصار تلتمس التماسيح التى خرجت الى رمال الشاطىء تنال دفء شمس الشتاء المحسنة قال الامريكى ذو السراويل البيضاء :

- لقد جئنا امس الى هنا ورأينا من التماسيح قطيعا كبيرا تمدد كل واحد من افراده على الرمل وفغرفاه الى الشمس يستشفى باشعتها من علل الشتاء

ونزلنا من السفين الكبير الذى اقلنا من حلفا الى زورق اوتوموبيل ليتسرب بنا فى تعاريج القنوات التى بين الصخور، والتى لا تتسع لزورق اكبر منه ، كى نصل الى قمة عالية هناك يحيط الناظر منها بالشلال كله . وفى لجة نور الشمس الساطعة سرى بنا الزورق وكاننا فى لجة ليل بهيم فانت بين اكمتين سوداوين وامامك على امتار اكمة سوداء ثالثة تكاد تتصل بهما وتقطع الطريق او يرتطم السارى . وتلتمس مسارب الماء بين ماتمر به من اكام الجرانيت فيرتد بصرك ولم يفدك شيئا . ثم اذا الزورق انحرف فجأة ليحاذى الاكمة القاطعة عليه طريقه فما يكاد يحاذيها حتى تنجم أمامه اكمة جديدة يتلوى من حولها كتلوى الثعبان فى مسارب الارض . ولم تمض دقائق فاذا بنا فى غابة



وكان اغتباط السلطان بالمرايا والورق عظيما

كثيفة من صخر رهيب مخوف . لكن روح الجماعة فى طبعها المرح مالم يلجمها الوجل او يستثرها الغضب . لذلك ظل اصحابنا تلتمس أعينهم التماسيح التى قص عليهم الشاب الامريكى أمرها . فاذا خدع احدهم بصره وخيل اليه أنه رأى تمساحا ثم تبين أن لا تمساح الا فى خياله تبودلت النكات من جوانب الزورق عن ضخامة الحيوان الموهوم وعن ذنبه الذى كاد يلقى بنا فى النهر وعن فكه المرتفع ليبتلعنا ، ولم يكن مخدوع البصر أقل نصيبا فى النكات من غيره . ومالنا لانمرح ومعنا الدليل الذى قص علينا أنه يتسرب بقاربه فى هذه اللجنة عشرات المرات فى كل شهر ومعنا النوبيون من أهل هذه النواحى يفخرون بأنهم يعرفون مسارب الشلال اكثر من معرفتهم أزقة قراهم . ثم ما لنا لا نجد فى هذا المنظر الرهيب موضع المسرة وبيننا سيدات وفتيات فى شبابهن المتورد الوجنات مايضىء الحالك ويبدد الظلم وهن برهبة هذا المنظر معجبات بل مفتونات

وطال بنا تسرب الزورق وتلويه من غير أن نحظى بتمساح واحد من سرب صاحبنا الامريكى حتى انتهينا الى الشاطىء عند أسفل القمة العالية . وأسرعنا جميعا لتسلقها ، وما كدنا نبلغ منتصفها حتى شعر كثيرون بالتعب . فالقمة رملية تغوص فيها الاقدام غوصا وتحتاج من اجل ذلك الى مجهودين : تخليص القدم من الرمل ، ثم لتساق للغوص به فى الرمل من جديد . لكن الشباب لا يعرف المشقة ولا يعجزه التعب . والطفولة لاتشعر بتعب ولا بمشقة لذلك أسرع الاولاد والبنات وأسرع الشباب والشابات الى رأس القمه . وفى النفس الانسانية وان شق عليها الجهد غريزة المنافسة وحب الفوز . وكم كان عجبا منظر شيوخ وعجائز هدهم التعب وأضناهم الكلال ثم لايريدون أن ينظر اليهم الجيل الذى بعدهم وكأنهم أضعف منه حولا أو أقل حيلة . انظر الى هذه العجوز البادنة المترهلة البيضاء الشعر كيف تلهث لكنها مع ذلك تستعين بنوبى

يصل بها غاية القمة لتكون مع أبنائها وحفدتها بما يخيل اليها أنها تملك الحياة ملكهم وتسمتع بها استمتاعهم . وهى كلما غاصت قدمها وغاص معها قلبها وقفت زمنا تسترد قلبها أولا وتنتشل قدمها بعد ذلك . وماكنت وما كان غيرى ، ونحن نطل عليها من أعلى القمة ، نحسب أنها بالغة ما تحتمل كل هذا الجهد فى سبيل بلوغه ، لكن الارادة القوية غالبة أبدا . وبارادتها تغلبت هذه السيدة على الهرم وضعفه ووقفت معنا فى اعلى القمة تمتع طرفها بالمنظر الرهيب العجيب

ما كان أصغر هذه القمة حين كنا بعيدين عنها ننظر اليها من فوق السفين الذى جاء بنا حتى أبواب الشلال ، وما أصغرنا نحن الان فوقها ! وقف هذا الجمع الحافل الحاشد من أشتات جوانب الارض فى مصر وانكلترا وأمريكا وايطاليا وغيرها ، حول بضعة أحجار منثورة فوق رمال هذه الاكمة ، فاذا هو من قلة الكم بما لا تلمحه عين من ظلوا فوق السفين . لكنه مع قلة كمه صلة ما بين هذه الاقطار الشاسعة التى يتكون العالم منها ، وهو لذلك روح هذا العالم الذى نعيش فيه . فمنه يستمد العالم أدق ما فى حياته وحركته ، وهو لذلك صغير عظيم ، لكن عظمته ليست فى أفراده بل هى فى الروح الانسانية الخالدة التى تعظم على الزمان كل يوم بما ترث على الزمان من سلطان والتى تزداد عظمة بما تشتمله من الوجود فى سلطانها وبما تذيبه فى الوجود من نفسها .

واذا كنا صغارا فوق الاكمة فماذا نكون فيما حولنا والاكمة ليست منه شيئا مذكورا . مددنا الطرف نريد أن نجتلى غاية الشلال وأحجاره فارتد دون هذه الغاية وقد ملأته الاكام الحجرية النابتة فى الماء رهبة ، وأجلناه فيما حولنا من كثبان الرمل المهيلة ، فأخذته واياها الى الافق فى موج لألاء تحت أشعة الشمس المنحدرة الى المغرب ، وتخطيناه النهر فاذا بعض أشجار تحيى فى هذا المحيط العابس جدة الابتسام ، ثم ثبتت زمنا فوق أكمات الجرانيت النابتة فى الماء تحيط بها قنواته الضيقة فما يكاد بعضها يتسع لمثل القارب الذى تسرب بنا خلال الشلال الى حيث ارتقينا القمة التى نطل الان من فوقها . وبدت على

الوجوه علائم الدهشة والاكبار لهذا المنظر العجيب ، فساد الصمت جمعنا حينا . ثم بدأ الجمع يتدرك القمة عائدا الى القارب . ياعجبا ! ما اكثر مايتغير منظر هذا السرب من الفيلة الجاثمة فى الماء ، فكلما تدرك الهابط سفح القمة بدت تحت ضياء جديد فاخذت صورة غير صورتها : فبعض يزداد من بعض اقترابا وبعض يزداد عن بعض بعدا ، وكذلك تتغير المحسوسات بتغير موقفنا منها ، فماذا يكون شأن ما نسميه الحقائق فى هذه النظريات من تصورات الذهن وأبنية الخيال ؛

وجلست أثناء هبوطى على حجر جاثم فوق الرمل وتلفت حولي فلم أر أحدا بالقرب منى اذ كان كثيرون مايزالون بأعلى القمة وكثيرون غيرهم وصلوا القارب . وجعلت أناجى نفسى : ماذا نكون من هذا الوجود العظيم ! وماحياتنا الثائرة القصيرة الى جانب هذا الخلد الساجى تبدو حكمته فى سكينة ماحولنا وطمأنينته . وانى لفى نجواى اذ مرت العجوز البادنة معتمدة على نوبيين وهى تلهث فى نزولها كما كانت تلهث فى صعودها . لكن ابتسامة على ثغرها كانت تعبر عما يدور فى خاطرها من عظيم الغبطة لانتصارها على ضعف الشيخوخة واقناعها بذلك نفسها انها ماتزال قديرة على حمل عبء الحياة الثقيل اللذيذ

وعدنا الى زورقنا فعاد يتسرب بنا بين صخور الشلال حتى السفينة التى ظلت فى انتظارنا . وعلونا سطحها والشمس تتأهب للمغيب ثم انتقلنا منها الى بريتانيا التى سارت بنا قبيل العشاء .

وفى الايام التى قضيناها بها حتى أسوان عادت الى خاطرى صورة الشلال وصورتنا فوق الربوة نجاهد ، عبثا ، لنحيط بكل حدوده رغم ما نزعم من الاحاطة حتى بحدود المجهول . لكن هذا العجز الذى يمسكنا ونحن وقوف يزول اذا تحركنا فاختزنا فى خيالنا صور الشلال وغير الشلال جزءا بعد جزء . وهذه الخيالات المختزنة هى قوتنا وذخرنا فى الحياة وهى الميراث الذى تتعاقبه الاجيال فيزيد الانسانية صلة بالوجود وسلطانا عليه .

وبلغنا أسوان صبح الاربعاء وبلغنا القاهرة صبح الخميس ، فعدنا يهزنا برد الشتاء بعد عشرة أيام قضيناها فى ربوع لا تعرف الشتاء .

مصر والسودان

لا استطيع ان أختم هـذا الكتاب من غير ان اتناول علاقات مصر والسودان بكلمة . وليست غايتى من التكلم عن هذه العلاقات غاية سياسية . فلعل القارىء قد أدرك من خلال الفصول السابقة أنى لم أتأثر فى أية مسألة من المسائل التى عرضت لها بأهواء السياسة أيا كانت . وانما توخيت ما يمليه العدل وما تقضى به المصلحة الانسانية العليا الى لاتقف عند حدود مصر والسودان بل تتجاوزها لما يمكن ان يستفيد العالم كله مما فى هذه البلاد من خيرات . وانما غايتى ان ابين ان خير السودان وخير مصر وخير هذه المصلحة الانسانية العليا التى تستفيد منها انكلترا قبل ان تستفيد منها أية أمة أخرى انما يتحقق على وجه أكمل كلما ازدادت مصر والسودان ارتباطا سواء من الجهة الاجتماعية او الجهة الاقتصادية أو الجهة السياسية وكلما تعاونا من طريق هذه الرابطة الوثيقة فى سبيل ترقية مصادر الانتاج المادية والمعنوية فيهما .

ولست أريد من أجل هذا البيان ان أدلل على ان مصر والسودان مرتبطان تاريخيا بروابط قديمة تجعل من حق مصر أن تطالب بالسودان كما كانت فرنسا تطالب بالالزاس واللورين . ولست اريد كذلك أن أقيم الحجه على ما أنفقته مصر فى السودان من مهج وأموال أو أن أرجع الى التاريخ لاى سبب من الاسباب ، فالتدليل التاريخى فى مسألة كعلاقة مصر بالسودان أشبه الاشياء بالمرافعات التى تحتاج الى قاض للفصل فيها والقاضى فى العلاقات التى تربط

الدول بعضها ببعض هى المصلحة الحاضرة التى يراها أبناء هذا الجيل من غير حاجة للرجوع الى أسانيد التاريخ ووثائقه

ومن نافلة القول ذكر الرابطة الطبيعية بين مصر والسودان وما توجبه هذه الرابطة من ضرورة توثيق الصلات بين هذين الجزأين من أجزاء وادى النيل ، وحاجة مصر الى توثيق هذه الصلات وتوكيد تلك الروابط أوضح ، فليس كمصر بلاد معلقة حياتها بنهر واحد ، وليس يصدق على بلاد ما يصدق على مصر من أنها هبة للنيل ، ولولا النيل لكانت مصر بعض الصحراء الافريقية الكبرى ولوصلت هذه الصحراء مابين المحيط الاطلانطيقى والبحر الاحمر ، لذلك كان هم المصريين فى كل الازمان بل كانت حياتهم معلقة على هذا النهر ، فكل ماتتأثر به مياهه من ظروف الطبيعة أو من عمل الانسان تتأثر به مصر ، وما نظن التاريخ يذكر أن المصريين ابتهلوا الى الله فى ضراعة وخضوع كابتهالهم اليه ليتم على النيل فيضانه ، ولا نظن المصريين فكروا فى امر من أمور حياتهم تفكيرهم فى هذا الماء المخصب المحسن الذى يجىء اليهم من طريق السودان يحمله المجرى العظيم بين جروفه

فاذا كان أكبر هم المصريين متجها الى الجنوب وكان اكثر تفكيرهم فى الصلات التى تربطهم بجاراتهم النيلية وفى توكيد هذه الصلات وتوثيقها فليس ذلك منهم حبا فى الفتح أو اندفاعا وراء شهوة الاستعمار التى يجرى وراءها كثير من الامم بل هو الحرص الطبيعى على الحياة حرصا أصيلا فى سليقة كل حى وفطرته

على انه اذا كانت حاجة مصر الى توكيد الروابط بينها وبين السودان أوضح من حاجة السودان الى مثل هذا التوكيد لموقع السودان عند منابع النهر فليس ذلك معناه أن السودان أقل من حاجة مصر لتوثيق الصلات بينهما ، ولئن كان السودان منبع الحياة المادية التى تفيض على مصر مع فيضان النيل فمصر هى منبع الحياة المعنوية التى تفيض على السودان مع فيض الحضارة أيا كان مصدره ، وكما تحيط الصحارى بمصر فتقصر حياتها على ما يغذيها النيل به من

مياهه كذلك تحيط الصحارى بالسودان وتفصله عن مصادر الحضارة ، ولقد بالغت الطبيعة فى ذلك حتى ليحسب الانسان حين ينظر الى خريطة النيل أن حوضه عالم مستقل فيه كل ماتحتاج اليه الحضارة من أدواتها وأسبابها ، ولقد فتحت موانىء على البحر الاحمر لتصريف تجارة السودان ولجلب التجارة اليه ، لكن هذه الموانىء لا تصلح ولن تصلح لتكون باب الحضارة والعمران ، بل كانت الحضارة وكان العمران يهبطان الى السودان من طريق مصر أكثر مما يهبطان اليه من أى طريق آخر . ولذلك كان السودان بأرجائه الفسيحة هو المهجر الطبيعى لمصر تحمل اليه من أسباب حضارة العالم مايشركه بنصيب فى هذه الحضارة .

وقد كان الغزو والفتح وسائل الحضارة فى الماضى . فكانت الدول ذوات الحضارة القوية تغير على غيرها من الدول فتفيد من حضارتها وتفيدها من الحضارة القوية ولذلك كثيرا مااتصلت الحروب بين مصر والسودان لاستقاء الصلات الطبيعية التى يجب ان يشعر السودانيون والمصريون جميعا بمحاربة اسباب ضعفها لا بالمحاربة فى سبيل وصلها . على أن تقدم العلم وتقريبه بين شعوب العالم المختلفة وتضييقه دائرة الارض جعل الغزو والفتح منظورا اليهما بعين المقت حتى من الاقوياء الذين كانوا يستفيدون منهما . وكلما أزداد العلم تقدما وازدادت الشعوب بعضها من بعض قربا وتمتنت الروابط العقلية والمعنوية وتحطمت الحدود والحواجز زادت اسباب التعارف والتفاهم وأصبحت وسائل العنف والبطش بين الجماعات منظورا اليها بعين المقت والازدراء مثلها اليوم بين الافراد والطوائف . ويومئذ تكون بين شعبين متجاورين او بين شعب واحد يقيم فى بقعة من بقاع الارض يسر العلم اسباب الرغد فيها شيئا عجبا وأمرا نكرا . ويومئذ يحل التضامن بين الشعوب محل التنافس . ويكون بين الشعوب المتجاورة التى تصل الطبيعه بينها أقوى رباطا وأمتن عقدة . ثم تكون كل الاسباب الصناعية الطارئة على هذا التضامن والمفسدة اياه موقوتة مرهونة بالزوال

لامفر اذن من أن يكون هذا التضامن بين مصر والسودان على القواعد التى تقضى بها ظروف الحضارة فى الوقت الحاضر . وادوات هذا التضامن كثيرة أشرنا الى بعضها حين الكلام عن مشروعات الرى الكبرى . وهذه المشروعات يجب أن لاتراعى فيها الا الاعتبارات الفنية التى تؤدى الى حجز اكبر مقدار يمكن حجزه من مياه النيل لانتفاع الاراضى الزراعية الواقعة على شاطئيه من أول مصر ذات الاولويه لتاريخيه فى هذا الانتفاع الى آخر منابع النيل . كذلك يجب على مصر أن تكون المنبع الذى تجرى منه اسباب الحضارة الى السودان . فليس الى السودان سبيل للحضارة غير هذا المنبع . ذلك لان المصريين اكثر العناصر امتزاجا بالسودانيين منذ اجيال طويلة . ولئن كان هذا الامتزاج قد اقترن فى أحيان كثيرة بعناصر سيئة من جانب او من الجانب الآخر فانه خلق بين الشعبين من الاواصر مايسر التفاهم بينهما الى حد كبير . والحضاره اذا مرت بمصر كان يسيرا أن يسيغها السودانيون بسبب هذه الاواصر . فأما اذا حملتها الى السودان عناصر أخرى ولو كانت من أمم اعلى من مصر فى الحضارة كعبا فانها لاتتأقلم فى السودان بمثل السهولة التى تتأقلم بها حين تحملها العناصر المصرية . ولعل الاسباب التى ادت فى الماضى الى عدم نجاح مصر فى حمل هذا العبء الانسانى فى السودان ان الذين كانوا يقومون برئاسة المصريين هناك كانوا من عناصر غير مصرية ، وان المصريين الذين كانوا مرءوسين لهؤلاء كانوا من طراز محتاج لاسباب الحضارة فلا يستطيع أن يقدمها لغيره . وأعتقد اعتقادا أكيدا أن مصر تستطيع أن تعاون السودان فى هذا المضمار معاونة جدية اذا وجد من المصريين ذوى المكانة والمقدرة من يتطوعون لهذا العمل من غير أية فكرة سياسية بل بدافع التضامن تحت تأثير الفكرة الانسانية السامية وحدها

اعلم أن اعتراضا عمليا له قيمته يقف فى هذا السبيل .

ذلك وجود الانكليز فى السودان وقيامهم بالحكم فيه . وهو اعتراض صحيح اذا كان الانكليز يريدون حكم السودان لمجرد الحكم والاستعمار فللانكليز مصالح بريطانية يقتضونها من السودان اهمها القطن الذى يزرع فيه . ولعل المواصلات الامبراطورية بعض هذه المصالح كذلك . لكن الانكليز لا مصلحة لهم فى اعاقة تقدم السودان وتحضيره . وكلما تقدمت الحضارة فى السودان وكان أهله أقدر على الاستفادة من وسائل العلم كانوا اكثر انتاجا فى سوق العالم العامة من جوانبها المختلفة . ولانكلترا فى هذا مصلحة أى مصلحة . ولئن كانت الظروف السياسية قد قضت فى الماضى أن تقف مصر وانكلترا فى السودان موقف الخصومة فاعتقد أن الانكليز والمصريين قد أدركوا تمام الادراك سوء تلك السياسة وعقم نتائجها بالنسبة لانكلترا ولمصر وللسودان جميعا . فمن الحكمة – وهذه هى الحال – أن يقدروا وجوب اتجاه السياسة فى المستقبل الى غير ما كانت عليه سياسة السودان الى اليوم

وليس نظام الحكم فى السودان هو المشكلة العويصة فى رأيى . واعتقد أن من الممكن التفاهم فى هذه المسألة بين مصر وانكلترا على أن تكون السودان ومصر متحدتين بينهما مثل نظام ال «federation» فيكون لكل فى المسائل الداخلية حرية التنظيم والتشريع وترتبطان جميعا فى المسائل الخارجية والمسائل العامة باتفاق مقررة قواعده وليس المقام هنا مقام تحديد أو تفصيل لهذا الاتحاد قبل قبول مبدئه . فاذا قبل هذا المبدأ كان وضع التفاصيل يسيرا . واحسب ان مثل هذا النظام فى مرونته وقابليته للتحوير يستطيع ان يحقق غايات الاطراف المختلفة .

وقد يمكن اذا قبل مبدأ هذا الاتحاد أن يترك النظر فى مصالح انكلترا وامتيازاتها فى السودان الى حكومة السودان نفسها تحلها فى حدود المسائل المتروكة بموجب نظام الاتحاد لتصرفها .

ويخيل الى أن حلا كهذا قد يكون من شأنه أن ينهى مسألة

معلقة لا فائدة لأحد من تعليقها وان يحل الى جانب ذلك مسائل كثيرة كمشروعات الرى الكبرى وكتحضير السودان وما الى ذلك مما يفيد السودان ومصر على السواء من غير أن ينشأ عنه ضرر لاية مصلحة من المصالح

واذا كان المؤتمر الامبراطورى البريطانى قد قبل مبدأ مساواة الممتلكات المستقلة مع انكلترا وأن يكون رباطها جميعا ولاءها للتاج وذلك لمصلحة الامبراطورية البريطانية ولفائدة السلام فى العالم ، فان مثل هذه الفكرة الحرة فكرة الاتحاد بين مصر والسودان قد تسهل الوصول الى حل مسألة السودان حلا موافقا لمطلب مصر من غير مساس بما للدول من المصالح فيهما

ولهذا الحل مزايا يعود أكثرها على السودان كما أن لمصر منها فائدة لا تنكر ، وهو فى نفس الوقت يكفل لانكلترا أن تحصل من السودان على المصالح والامتيازات التى ترمى الى تحصيلها من غير أن تضطر لحمل عبء المسئوليات المستقبلة التى تحملها اليوم فيه

وأول مزايا هذا الحل انه يحقق مايريد المصريون والسودانيون من وحدة القطرين ، من غير أن يجنى ذلك على عزة أى منهما ، ومن غير أن يعوق تقدمه متأثرا بعوائده وعقائده واعتباراته القومية الخاصة ، وهو مع ذلك لا يجد من الاعتراض عليه ما يجده الاندماج التام بين القطرين ، فالذين يريدون هذا الاندماج يبنونه على التاريخ وعلى وحدة الجنس والعادات فى مصر والسودان ، وخصوم الاندماج ينكرون وحدة الجنس ويذهبون الى أن السودانيين غير المصريين والى أن طوائف العرب فى مصر وفى السودان لا تكون سواد الشعب فى أى بلد من البلدين وانما هى أقليات جاءت فى عصور الفتح الاخيرة ، وهم ينكرون كذلك وحدة العادات ويذهبون الى أن تطور الحضارة فى مصر غير من عاداتها القديمة حتى لو أن شيئا من الوحدة كان موجودا فى الماضى بين عادات المصريين والسودانيين فقد انقطع اليوم ، وسواء أكان هذا الاعتراض صحيحا ام باطلا فهو لايغير من العلاقات الطبيعية التى بين القطرين والتى أشرت اليها

من قبل ، وهو لذلك اذا أمكن جدلا أن ينهض عائقا فى سبيل الاندماج فلا يمكن أن ينهض عائقا فى سبيل الوحدة

فالاتحاد السويسرى والولايات الامريكية المتحدة ليس بين الولايات التى يتكون منها أى من هذين الاتحادين مثل ما بين مصر والسودان من شبه أو علاقة ، انما تصل هذه الولايات روابط المصلحة البحتة ، فأما سوى ذلك فيختلف بين ولاية وولاية اختلافا بينا . فسويسرا على صغرها يتكلم أهلها ثلاث لغات مختلفة هى الفرنسية والالمانية والايطالية ، ويدين أهلها بمذاهب مختلفة ، ولا تجمع بينهم الا ناحية أخرى . والولايات الامريكية المتحدة تجمع من مختلف الامم واللغات والالوان . لكن رابطة الجوار والمصلحة تسمو فوق كل اعتبار آخر وتجعل من الاتحاد الامريكى قوة قومية وعالمية منقطعة النظير

ثم ان اعتراضا آخر يقيمه جماعة من المصريين انفسهم يجعل الاتحاد وسيلة صالحة . ذلك ان نظام القبائل والعائلات قد زال من مصر ولم تبق منه الا آثار لا قوة لها ولا سلطان وحل محله النظام الديمقراطى الصرف الذى يجعل الحياة الدستورية هى الحياة الوحيدة الصالحة كنظام للحكم فى مصر . فأما فى السودان فما يزال نظام القبائل والعائلات هو النظام الاساسى الذى تقوم عليه الجماعة السودانية . ولئن كانت التطورات العالمية المقبلة قد تدفع السودان كما دفعت مصر نحو النظام الديمقراطى فان هذا التطور بحاجة الى زمن غير قليل . والى أن ينقضى الزمن اللازم لتمام هذا التطور فمن العسير ؛ بل من التعسف ، اخضاع السودان للنظام الذى تخضع مصر اليوم له .

وثمت اعتبار آخر يجعلنا نفضل نظام الاتحاد بين مصر والسودان على نظام الاندماج . ذلك ان مصر متهمة فى سياستها بازاء السودان بانها سياسة استعمار لا سياسة تحرير . وهذه التهمة تروجها

السنة السوء كما روجت من قبل تهمة حرص مصر على الاستئثار بمياه النيل . ولا تكتفى هذه الالسن باتهام المصريين بالميل للاستعمار بل تذكر السودانيين بأيام قديمة كان نواب حاكم مصر فى السودان يسلكون مسلك العسف والاستبداد ويضربون هذا المسلك نظاما لحكم المصريين ومع بطلان هذه التهمة أمام التاريخ والحق لان هؤلاء الولاة الذين يوفدون الى السودان لم يكونوا مصريين وانما كانوا من جنس الحكام الذين يحكمون مصر نفسها ، فانا نعتقد أن المصريين أحرص من أن يتهموا بالميل للاستعمار وانهم يريدون للسودان التقدم الحقيقى نحو الحرية . وذلك يتحقق تماما تحت نظام الاتحاد . فيومئذ يكون المصريون الذين يذهبون للخدمة فى السودان انما يذهبون بدافع محبة السودان والحرص على رقيه لا بدافع استعماره وحكمه . ويومئذ يجد السودانيون الوسيلة للرقى ولتحقيق كل معانى العزة القومية

ولهذا الحل مزايا يعود اكثرها على السودانيين انفسهم . فهو يطمئن جميع المصريين تمام الطمأنينة على مشروعات الرى الكبرى ويزيل من نفوسهم كل خوف من ان تكون هذه المشروعات يوما من الايام وسيلة لاكراههم على قبول مالايقبلونه اختيارا او سببا لارغام عزتهم واذلالهم . ويومئذ تتسع الاراضى المصرية القابلة للاستغلال وتضعف فى نفوس المصريين فكرة الهجرة الى زمن طويل مقبل . واذ كانت النفس الانسانية غير مولعة بالانتقال الا بدافع المصلحة وكان الاكثرون لاينظرون الا لمصالحهم الخاصة القريبة فان المصريين الذين يذهبون فى هذه الظروف الى السودان سيذهبون تحركهم عواطف انسانية سامية تريد أن تمتن صلة الحضارة بين السودان وكافة مواطن الحضارة التى يتعذر انتقالها الى السودان عن طريق غير مصر كما سبق القول . وما نشك فى أن هؤلاء سيعاونون على سرعة رقى السودان فى مضمار التقدم الانسانى مادامت ادوات الحضارة

المادية تشاد فيه فتعاون على تزايد سكانه وعلى أخذ ابنائه بنصيب فى المعارف اللازمة لزيادة الرغد والرخاء فى ارجائه .

ونعتقد ان السودانيين يشعرون بشعورنا هذا ، وأن الانكليز الذين أقاموا بالسودان منذ افتتاحه وتعاونوا مع المصريين فى تنظيمه يشعرون بهذا الشعور كذلك . ومهما كانت احداث السياسة قد دعت فى بعض الظروف الى اعلان سيئات عن المصريين واعمالهم فى السودان فالحقيقة التى لاريب فيها أن المصريين كانوا دائما اشد العناصر صلة بالسودانيين واكثرها عطفا عليهم ، وانهم لم يكونوا فى السودان تحركهم عاطفة الانانية التى تحرك غيرهم من النازلين اليوم فيه ، والتى تدفع هؤلاء الى ان يقصروا نظرهم على المصلحة الشخصية والحرص على اقتناء الثروه .

وهذا الحل ادنى الى المصلحة البريطانية من نظام السودان الحاضر . فهو حل يرضى عزة السودانيين ويتفق وكرامتهم القومية . وهو لذلك يبعد السودان عن اسباب القلق التى تكلف الحكومة البريطانية مسئوليات الامن والنظام فى السودان وما يترتب على هذه المسئوليات من نفقات يحتملها دافع الضرائب الانكليزى من غير ان تكون لاحتماله اياها ضرورة ملجئة . ثم هو حل يتفق وتطور العالم فى سبيل التضامن السلمى المنتج لخير الجميع ، والذى اصبح يحل رويدا رويدا محل القوه والاكراه والاستعمار . وهو من جهة ثالثة اقرار لنظام مرن لايتنافى مع ماتريده انكلترا من تقدم زراعة القطن فى السودان ومن نجاح مشروع الجزيرة نجاحا باهرا . وهو فوق ذلك عين على هذا النجاح ويجعله اقرب منالا واقل نفقات بما يطوع للمصريين من الاخذ فيه بيد السودانيين ومعاونتهم اياهم معاونة هى لاشك خير واجدى من معاونة الفلاتة وغير الفلاتة من المزارعين الطارئين . ولئن كان المصريون قد ترددوا فى هذه المعاونة لما دعتهم انكلترا اليها من طريق شركة الجزيره فى سنة ١٩١٣



خريطة
وادى النيل
البحر الأبيض المتوسط
ليبيا
الاسكندرية
بورسعيد
القاهرة
مصر
بلاد العرب
اسوان
وادى حلفا
دنقلة
بورسودان
عطبرة
ام درمان
الخرطوم
السودان
فاشودة
الحبشة
الكونغو البلجيكية

فذلك لان ظروف السياسة كانت يومئذ مبعثا للخوف والقلق . بينا اقرار نظام كنظام الاتحاد بين مصر والسودان وما يترتب على هذا النظام من الطمأنينة لنفوس المصريين يزيل كل اسباب الخوف والقلق .

وثمت اعتبار آخر لايمكن أن يغيب عن فطنة السياسة البريطانية وبعد نظرها ذلك أن سواد المصريين لايمكن ان يهدأ لهم بال اذا رأوا السودان منفصلا عنهم . وهم سيذكرون دائما كلمة وزيرهم شريف باشا : «اذا تركنا السودان فالسودان لن يتركنا » ، وكلمة المستشار الانكليزى لوزارة الاشغال المصرية : « السودان الزم لمصر من الاسكندرية » . واذا صح ان مرت فترات من الوقت هدأت فيها عواصف السياسة لسبب من الاسباب واضطر المصريون للرضى عن حالهم سواء لعدم ملاءمة الوقت او لان القادة الظاهرين منهم قد شبعت اطماعهم بما نالوا من المناصب والجاه والمصالح لانفسهم ولذويهم فان هذه الفترات لايمكن ان تدوم فى حياة الامم مادام ثمت مايدعو الى تزعزع الامور فيها . كذلك لايمكن ان يغيب عن فطنة السياسة البريطانية وبعد نظرها ان السودان ومصر بينهما فضلا عن رابطة النيل الطبيعية رابطة اللغة والعقيدة والجوار . وهذه روابط لاوجود لها عند اى من الدول الاخرى المتاخمة للسودان . وطبيعى مع تقدم الرقى والحضارة فى السودان ان تزداد عقدة هذه الروابط متانة وان ينظر السودان لمصر بمثل العطف الذى ينظر مصر به للسودان . ويومئذ لايترك السودان مصر اذا هى تركته . ولا يمكن ان يغيب عن فطنة السياسة البريطانية وبعد نظرها اخيرا ان فترات القلق اصلح الفترات للشعوذة السياسية وابعدها عن أن تكون الظرف الملائم للاتفاق الودى المعقول . فاذا كان ذلك كله صحيحا كان الوقت الحاضر انسب الاوقات للتفكير فى اتحاد مصر والسودان على المبادىء السابق ذكرها . ذلك بأنه وقت سكينة وهدوء وكل

اتفاق يتم فيه يتم بعد رويه وتفكير ويكون منبعثا عن اعتقاد صحيح بصلاحه .

ولقد اكدت لى اقامتى القصيرة بالسودان صحة هذا الرأى الذى عرضت . فكما ان السودانيين بحاجة لى أن يقوموا بالعمل لتتطور نظمهم الحاضرة فى اتجاه يتفق وسيرة العالم الحاضرة - هذه السيرة التى لامفر من وصولها الى ايجاد مشابهة كبيرة بين نظم الحكم فى مختلف دول العالم بسبب ما تقرب المواصلات الدول بعضها من بعض - فهم بحاجة فى هذا السبيل الى معونة صادقة مخلصة ليست لها اية غاية سياسية ، واذا كان وجود الانكليز للاشراف على تقدم زراعة القطن فى سهل الجزيرة من شأنه ان يعطيهم فى ذلك مثلا صالحا فان الفارق بينهم وبين الانكليز فى اللغة والجنس والعادات والدين يجعلهم بحاجة الى المصرى القريب منهم فى ذلك كله والذى درس الانكليز عن قرب ، والذى لا يرجو بعد وضع قواعد الاتحاد بين مصر والسودان ، الا ان يمهد السبيل لبقاء هذا الاتحاد وثيقا متينا بعيدا عن العثرات والاضطراب .

كتب للجميع

كتب قيمة بقروش زهيدة

صدر منها حتى الان

١٣ ـ صـــانع الحب ـ مجموعة من القصص الواقعيـــة ، جرت حوادثهـا فى القاهرة وباريس ولنـــدن للاستاذ احسان عبد القدوس

١٤ ـ دموع وضـحكات ـ مجموعة قصص واقعية تمثل مافى الحياة من مآس وخواتمهـا للـكاتب الـكبير الاستاذ عباس حافظ

١٥ ـ عند ما تحب المرأة ـ مجموعة قصص مصرية تصـــور نفسية المرأة وتحلل غوامضـها للاســـتاذ حلمى مراد المحامى

١٦ ـ حاجى بابا الاصفهانى ـ عن جيمس موريه بقلم درس الشافعى مجموعة من خرافات فارس وأهلها تضحك اعصى الناس ضحكا

١٧ ـ جرائم ومرافعات ـ للاستاذ يوسف حلمى المحامى ـ مجموعة من أشهر القضايا الجنائية الغربية التى اثارت اهتمام العالم كله

١٨ ـ الطريق الى السعادة ـ للفيلسوف الامريكى هنرى لنك بقـلم ثروت محمود ـ أبحاث عملية تجريبيـة للتخلص من متاعب الحياة والحصول على السعادة

١٩ ـ موعد فى الجنـــة ـ قصص واقعيه عن الابطال المصريين الذين استشهدوا فى فلسطين للصحفى المعروف الاستاذ حلمى سلام

٢٠ ـ نجيب الريحـانى ـ دراسة وافية دقيقة لحياة نجيب الريحانى بقلم الاستاذ عثمان العنتبلى

٢١ ـ صـور من الريف : صورة صادقة لحياة الريف بما فيـه من نعيم وشقاء ، ومسرات واحزان للـكاتب المبدع الاستاذ محمد زكى عبد القادر

٢٢ ـ الحب فى التاريخ ـ أشهر قصص الحب التـاريخية للاسـتاذ سلامة موسى

ثمن كل نسخة من هذه الكتب

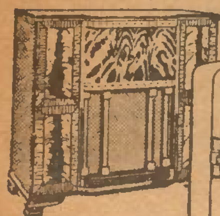
٥ قروش

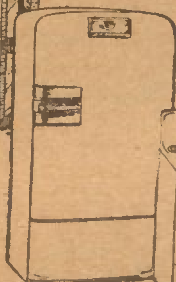
تطلب من شركة التوزيع المصرية ٨ شارع ضريح سعد بالقاهرة

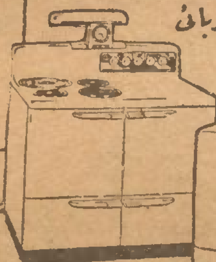


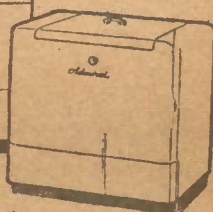
العدد الثانى يصدر يوم ١٥ نوفمبر

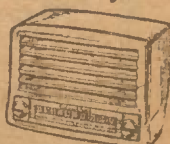
توجد أجهزة
أدميرال
لكل ما تحتاج اليه


راديو جرامافون


ثلاجة


مطهى كهربائى


خزانات لحفظ الأغذيه


أجهزة راديو صغيرة


أجهزة لتغيير الاسطوانات آليا

ان ادميرال يعرف حاجاتك ويعرف كيف يشبعها وهو فى أحجامه وأسعاره يلائم كل ذوق ويوافق كل ميزانية. وتعتبر الثلاجة «ديوال ـ تامب» ذات الخزانة الداخلية أعجوبة فى تصميمها وفنها. وإذا أنصت إلى راديو أدميرال أعجبك صوته الطبيعى الحلى كما أن المطهى الكهربائي أدميرال الذى يطهى وحده آليا وجبة طعام كاملة جدير بتقدير ورضاء ربات المنازل . ويتمثل فى كل جهاز من أجهزة أدميرال جمال التصميم وسمو الفن الهندسى وندرة القيمة

الوكلاء الموزعون للقطر المصرى

شركة الشرق الأوسط للمشروعات والتوزيع والتجارة

عمارة ايموبيليا رقم ٢٦ شارع شريف باشا بالقاهرة